مجموعة قصصية

لــم يعد متاحاً ...

زين العابدين الشريف



اهداء

اليه وانا اصغي لتأملاته..

.. كل شيء يشـــيــر الى البـــداية الجديدة!!

الى كامل الشريف.. الانسان..

زين العابدين الشريف



تجربة..



تجربة..

أسلمني اول النهار لاخره منهكة. متعبة، بعدما سلبني حيويتي واشراقتي.. امضيت معظمه في ترتيب البيت وتنظيفه والعناية بالاثاث وغسل الملابس وكيها.. حتى الهاتف، لم يكن لدي وقت للاجابة على رناته اللحوحة.

عاد زوجي متأخرا.. أعددت له عشاءه.. جلست اترقب انتهاءه لاهرول مسرعة الى غرفتي.. أعيد لجسدي راحته بعد هذا اليوم الشاق.

تهاويت على السرير أمني نفسي بنوم عميق..

القى جسده الى جواري.. ترك ضوءا يسيرا تناثرت نجومه في اركان الغرفة.. جاوز الليل منتصفه، داعبني واستدرجني الى ممارسة الحب.. همست متضجرة.. ذكرته بتأخر الوقت وحاجتي للنوم والراحة.. استيقظ مارده.. لم تكن لي رغبة حتى في المناورة.. رفضت باصرار.. أسرعت الى خزانتي ارتدي ثياباً تستر جسدي.. تقطع عليه التفكير فيه..

كنت احبه واعشقه.. أسعد بكل لحظة بين يديه.. لكني لم اقو على مجاراته تلك الليلة.. لا طاقة لي.. ولا يتحمل جسدي

مزيدا من المعاناة..

استدار الى الناحية الاخرى متكدرا..

قرب الفجر.. أفقت على حشرجات تصدر منه..

فزعت.. هرولت.. حاولت ايقاظه. لكنه.. فارق الحياة..

لم يكن بوسعي الاعتراض على الموت..

حزنت ملء حياتي للحظات نشوة اخيرة، كنت املك منحها اياه!

تسلقتني غصة مريرة.. ولفتني تساؤلات مؤلمة.. ماذا لو وافقته رغبته الاخيرة؟ ماذا لو تحملت آلاماً محببة الى نفسي ترضيه ولا تميتني.. لو اضيفت للارهاق الذي كان يدغدغ بدني؟

تمنيت لو اني وهبته نفسي بعدما وهبته حياتي، وقضيت تلك الليلة تحت قدميه..

من يدري لعله لم يمت؟ أو كنت منحته نشوة اخيرة؟ ربما لم تكن أخيرة!

لا أدري لماذا يطاردني طيفه بعد تلك السنوات الطوال التي قضيتها ارملة وحيدة.. انتهت بالاقتران بزوج اخر.. لا يشبهه من قريب أو بعيد.. قنعت به سلاحا لقهر الوحدة، وهزيمة العيون والالسن قبل ان تتناوشني..

تساءلت مرة اخرى.. لماذا اذكره بالحاح هذا المساء بالذات؟ ربما الشبه الكبير في ذات الليلة بشتائها وارهاقها الذي زحف الى جسدي من اعمال البيت طوال اليوم؟ لا أدري ربما..؟

أسمع وقع خطوات زوجي.. وأصواتاً اخرى لانفاسه اللاهثة..

أتظاهر بالنوم.. يقتحم أنفي مزيج لروائح قدميه، وعرق ينبعث من بدنه..

ألقى جسده الى جواري بعدما اطفأ الانوار، الا من نزر يسير..

مد يديه يداعبني.. يستدرجني..

لم تكن لي رغبة.. لكني اطلقت نفسي.. دون تردد!



الحلاق..

الحلاق..

يتناهى لمسمعيَ مزيج لهمهمات وأصوات تتعالى شيئا فشيئا.. لا أعرف مصدرها؟ ولا اكترث لها، في سوق مزدحمة بالضجيج والاصوات والصيحات المنبعثة من الباعة ومحلات الكاسيت وأبواق المساجد المجاورة.

تمسك يدي المشط.. وتقبض الاخرى على المقص.. تقوده بحذر بين ثنايا الشعر المتجعد لرأس الزبون المنحني أمامي على الكرسي.

اتجاذب معه أطراف الحديث.. أرفع رأسه بهدوء تجاه المرآة، أعدل من هيئتها.. تتلاقى عيوننا في المرآة.. تتعالى الاصوات.. يتلاشى وجه الزبون.. يختفي.. يتحول لموكب مهيب يملأ المرآة.. تصيبني الدهشة.. يتوقف الحديث بيننا..

أهرول ناحية باب الصالون والمقص في يدي.. يظل الزبون حبيس الكرسي والمعطف الازرق فاغرا فاه. محدقا في المرآة!!

أمط عنقي مشدوها في كل الاتجاهات محاولا استيعاب ما يحدث!.. عيناي تتأرجحان بين اناس كثيرين يسيرون بفوضى متسارعة.. يرددون كلمات مقدسات تضفي على الموكب مهابة ورعباً.

بعضهم يتناوب على حمل النعش في المقدمة، والبعض الاخر يمشي في صمت حزين، تفضحه عيونهم المبللة ورؤوسهم المنكسة. وآخرون يهرولون في ذيل الجنازة.

سارعت الخطوات أهرول في محاذاة أحدهم.. أسأله عن الميت؟

يا للكارثة! لا أكاد أصدق.. انه صديقي الحميم.. امضيت معه معظم سنوات دراستي وسنوات كثيرة من حياتي.. لم يكن يمضي يوم واحد دون ان أراه.. أو نتبادل التحية في الطريق.. بالامس كان يجلس بيني وبين المرآة على ذات الكرسي.. كنا نرتشف الشاي والاحاديث ونتبادل النكات..

ما زالت صورته مطبوعة في ذاكرتي حينما نهض محدقا في المرآة وطلب أن اخلصه من تلك الشعرة البيضاء عند مفرقه - حتى لا تتهمني زوجتي بالهرم ..

ضحكنا كثيرا.. وعد أن يزورني في البيت مع العائلة.. قلت له.. تبدو عريسا الليلة. كانت آخر كلماته: الفضل يعود لاصابعك الساحرة يا فنان..

اتعثر للحظات بين ذكريات الصديق الميت وفقدانه المفاجىء.. اعتصر قلبي حزنا على زوجته وأطفاله..

لا أدري كيف اتصرف وانا أبحث عن موقع لقدمي بين الكتل البشرية المتدافعة.. لم أتردد في اللحاق بالجنازة وهي تنحرف لشارع جانبي طويل يؤدي الى المقبرة.

انصهرت مع المشيعين وانا امشي بينهم.. صرت واحدا منهم.. أحدق مذهولا في كل شيء حولي.. المارة يقفون في اماكنهم.. ينظرون بخشوع للجنازة.. نساء وصبية يقفون امام ابواب

البيوت، واخرون يطلون من شرفاتها.. باعة يلملمون بضاعتهم المفروشة على الطريق قبل ان تسحقها الاقدام.. صالون حلاقة يقف على بابه زبائنه وعماله.. تذكرت زبوني حبيس الكرسي والمعطف الازرق المسجون امام المرآة؟.. تسارعت خطواتي..

وقعت عيناي على امرأة تقف امام باب منزو على ناصية عطفة جانبية.. يتناثر شعرها الذهبي بعبثية حول عباءتها السوداء.. علامات الدهشة والترقب بادية على عينيها الجاحظتين.. اشارت بطرف يدها اليّ؟

حدثتني نفسي انها تريد السؤال عن الميت؟

عبر سحب الغبار المتصاعدة من الاحذية.. انحرفت قدماي تجاهها.. توقفت قبالتها متأهبا لاخبارها أن الميت صديقي..

بادرتني وهي تمد يدها لتصافحني: زوجي في المقدمة يشارك في حمل النعش!

مددت يدي لها وعيناي شاخصتان صوب الجنازة.. جذبتني من ذراعي بشدة الى الداخل.. لم تكترث بعباءتها التي سقطت عنها وهي تغلق الباب.. قادتني مسرعة الى غرفة نائية، تنبعث منها أصوات موسيقى!

في الطريق.. وانا اجرر قدمي المتثاقلتين.. تذكرت ان يدي كانت تحمل مقصا!



في الشارع القديم..

في الشارع القديم..

لم تدرك أمي، وهي تعانقني بعد غيبة طويلة، مدى اشتياقي لنعيمة، وتلهفي لرؤيتها.. قالت وهي تتحسس وجهي الذي لم تهدأ حركته تجاه شرفة بيتها.. آن الأوان يا ولدي ان افرح بك قبل أن اترك الدنيا.. اخترت لك عروساً جميلة، من عائلة محترمة.. أطلعتها على صورك ورسائلك حين أتت لزيارتي مع أمها اكثر من مرة.. هي تواقة لرؤيتك..

رجوتها وأنا اقبل يدها أن تتريث.. لم أشأ مكاشفتها برغبتي الدفينة الملحة في الزواج من حبيبتي نعيمة.. وفاء للعهد الذي بيننا، وتقديسا لسنوات لم تغب عني فيها لحظة واحدة، بقوامها الفارع، وعينيها الواسعتين اللتين كنت أسكنها.. وكانت تبتلع غربتي بمدنها واسواقها وناسها.. وسمرتها التي احالت الليالي المتباطئة المظلمة في غربتي الى ضياء ينبعث منها.. أتذكر وجهها صباح مساء.. أعد الدقائق والثواني للقائها..

لم يعلم بعلاقتنا سوى تلك الشجرة النائية بالقرب من محطة الحافلة التي قضينا تحت ظلالها أجمل أوقاتنا.. وتلك الشرفة التي تبادلنا منها الاشارات والمواعيد والابتسامات..

بدت لي الشرفة ميتة.. لا حركة فيها.. تعتليها اكوام التراب..

حاولت ان أبعد عن تفكيري أي مكروه قد أصابها واسرتها..

اصطنعت لا مبالاة حين سألت امي.. ترى كيف أحوال جيراننا؟

ارتسمت على خطوطها.. خطوط اخرى لا تبشر بسعادة.. فعدت اصطنعت هدوءاً مزيفا يخفي بركانا يوشك ان ينفجر!

أطلقت تنهيدة كانت محبوسة في صدرها.. «ايه يا بني.. توفي الاب بعد سفرك بفترة قليلة.. ورحلت الام وابنتها الى حيث لا ندري.. انقطعت اخبارهما..».

لم اتمالك نفسي.. بعدما فرغت امي من كلمات هوت على قلبي كالصاعقة.. اجتاحني قلق وحيرة.. سارعت بمغادرة البيت.. أبحث عنها.. اعرف مكانها..

اخبرتني بوابة العمارة انها تقيم بالقرب من بقالة تديره عجوز في الشارع القديم..

لم أجد صعوبة في الوصول الى تلك العجوز صاحبة البقالة. اقتربت منها.. كانت تحتمي بعصا تعينها على نقل خطواتها..

لم تأبه لوجودي.. لم تسمعني وأنا أطلب منها زجاجة عصير! أعدت عليها الطلب بصوت مرتفع.. ساعدتني حركتها البطيئة على استكشاف البيوت المجاورة والتحديق فيها.. انتهزت فرصة اقترابها مني وهي تناولني العصير.. سألتها عن بيت نعيمة؟ أشارت بعصاها الى البيت المقابل.. ذي الباب الخشبي..

جلست على بقايا مقعد متهالك قريبا من العجوز.. اقبض على زجاجة العصير... احتسيها بتأن شديد.. ارقب بنشوة جارفة باباً خشبياً تسكن خلفه نعيمة.. تراءى لي كسجن له جدران

مقيتة.. وددت أن اقفز فوق أسواره العالية.. احطمها.. اخلصها من حبسها.. واصحبها الى حياتي..

تملكتني حيرة محببة وانا ارتشف العصير بصمت له زغاريد مدوية.. لكن المفاجأة ألجمتني.. رأيتها تخرج من البيت.. تغطي وجهها.. يتبعها طفلها وزوجها بعدما أغلق الباب بمفتاح في يده.. نقلت نظراتها ناحية البقالة من اسفل ذاك الغطاء الاسود..

انتزعت زجاجة العصير من فمي.. شعرت بتجمد قطراتها في حلقي المتيبس..

- بالتأكيد رأتني.. تجاهلتني.. ماذا عساها تفعل؟

تساءلت بأوجاع المطعون.. ماذا ستقول لي بعد ان تعاقدت مع الشيطان في صفقة دنيئة.. عصفوران بخيانة واحدة؟

وددت لو اصفعها امام زوجها.. اخبره بعلاقتنا.. تراجعت، بعدما ادركت انه ضحية مثلي.. حدثتني نفسي.. كيف حدث هذا؟

- لا أصدق.. كلهن خائنات!

تمنيت بقائي في غربتي على اطلال حب، لم اكن أدري انه سيتحطم على جدران هذا الشارع القديم.. صار شظايا اصابت قلبي.. مزقته.. مزقت معه الحقيقة البغيضة القابعة تحت هذا الغطاء الكريه!

ارتشفت مع العصير بقايا أحزاني.. ابتلعت مع خيانتها مرارة عمري وسنوات أملي وانتظاري..

أشارت العجوز بعصاها قائلة: ها هي نعيمة وزوجها.. يمكنك

اللحاق بهما.. لم تكن لدي طاقة للانصات اليها.. ناولتها مع النقود كآبتي.. جرجرت قدمي المتثاقلتين الى البيت.. دفنت رأسي في صدر أمي.. رجوتها ان تسارع باتمام زواج كانت تعد له بسعادة غامرة.

بعد مضي اسبوع من زواجي بالعروس التي اختارتها امي، وقع بصري على نعيمة وسط الزحام في سوق المدينة.. بشعرها المنساب على عنقها.. وعينيها الواسعتين.. ممسكة بيد أمها.

أذهلتني المفاجأة!

تحفزت لمواجهتها واتهامها بالخيانة التي جبلت عليها.. فهي تخون زوجها ايضا حين تخرج سافرة. كاشفة الوجه لانها في غير صحبته.. رمقتها بازدراء، وكدت ابصق عليها؟

لم أجد من نفسي ترحيبا بالالتفات اليها.. أسرعت في الابتعاد.

أطلقت يد أمها.. هرولت ناحيتي تناديني بهمسات لا يسمعها سواي. تعجبت لبجاحتها! وزاد من مقتي لها تلك الابتسامة المصطنعة التي تعلو شفتيها.

تجاهلتها حين سارت بجواري.. حدثتني بكلمات سريعة لاهثة: ما زلت انتظرك.. أخبرت امي بعلاقتنا.. هي تنتظر عودتك مثلي.. تركنا بيتنا السابق.. نقيم في الشارع القديم بالقرب من بقالة تديرها عجوز.. سينتظرك قلبي اليوم.. لا تتأخر!!!

قبل ان تلحق بأمها. التفتت ناحيتي.. قالت بابتسامتها الساحرة تداعبني.. احذر ان تضل.. تسكن البيت المجاور لنا امرأة اسمها نعيمة!

امرأة مهمة..

امرأة مهمة..

سارعت الى المستشفى الذي نقل اليه جاري الطبيب..

في الطريق تراءت لي زوجته المشغولة دوما في التدريس واللقاءات والندوات.. كانت شعلة نشاط متوهجة، معظم نساء البلدة يغبطنها لجرأتها وثقافتها.

ربما لم تعلم بمرض زوجها المفاجيء، ولم يبلغها أحد... حدثتني نفسي بالتقصير.. من المفروض أن ابحث عنها وأخبرها! الوقت لم يكن يسمح، ولا أعرف الاماكن الكثيرة التي تتردد عليها... صار الاهم أن اطمئن عليه، وأقف الى جواره.

وصلت الى المستشفى.. دلفت مع اخرين هرعوا لزيارته عبر ممرات تنبعث منها روائح الادوية والمطهرات.

سارعنا الى حيث يرقد.. تحيطه الاجهزة والمحاليل، وتحاصره خراطيم واسلاك داخلة وخارجة من جسده.. لم يجرؤ احدنا على الحديث معه... جلس بعضنا على المقاعد القليلة... ووقف اخرون يلقون ظهورهم على جدران الغرفة.. تعرفت على وجوه بعضهم من اقاربه واصدقائه.. تبادلنا التحية بايماءات الوجوه واشارات العيون.. غمرنا صمت ثقيل لا نعرف نهايته..

حانت مني التفاتة الى وجهه النحيف بعدما تخلى عن

نظارته، تذكرت المرة الاخيرة التي قابلته فيها يهم بركوب سيارته... لم تكن لدي رغبة في تعطيله، فالارتباك باد عليه.. دعوت له بالتوفيق في علاج الحالة التي يسرع لانقاذها؟.. القى حقيبته داخل السيارة... قال لي: الحالة هي اطفالي.. انهم لا يطيقون التعامل مع الخادمة الثالثة التي جلبناها لهم... يرفضون ان تعتني بغذائهم، وثيابهم... يرفضون ان تساعدهم في واجباتهم المدرسية.. لا أدري كيف اقسم الوقت بين البيت والعمل.. العيادة تحتاج مني لوقت كبير، وتركيز أكبر!..

رأيناه يدير وجهه ناحية الباب على وقع خطوات عالية تقترب من الغرفة..

انها زوجته!!

تذكرت لقاءها الاخير على شاشة التلفزيون.. تحدثت عن دور المرأة في الحياة... تلقت مكالمات من نساء كثيرات.. سألنها عن الاسرة المثالية؟ طلبن نصيحتها حيال معاملة الازواج... استعرضت ثقافتها الواسعة وخبرتها للاجابة عن أسئلتهن.. استعانت بمصطلحات قوية رائعة، ترشدهن الى الحقوق والحرية واشياء أخرى.. كانت بارعة ومتحمسة للدفاع عنها في كل زمان ومكان!

رآها.. حاول أن يتكلم.. لم يقدر.. انتزع كمامة كانت موضوعة على أنفه.. حاول تخليص جسده من حبسه.. مزق الاسلاك والخراطيم التي تحيط به.. وقعت اجهزة وانكسرت زجاجات... هرع اليه الاطباء وبعض الممرضات.. حاولوا تهدئته.. طلب منهم باشارات لم افهمها، الا وهم يحضرون له ورقة وقلماً..

دون عليها كلمتين... أومأ للطبيب المعالج ان يناولها لزوجته..
التقطتها باطراف اصابعها.. زرعت يدها في خاصرتها... هزت ساقيها بحركات متتابعة... أطل من عينيها المحتدقتين في الورقة غضب كبير... تمتمت بكلمات لم أفهمها. وقبل أن تغادر على عجل، رمقته بازدراء.. والقت الورقة كيفما اتفق..
رفعت رأسي التفت اليه.. كان يغط في نوم عميق!



الأوزة..



الأوزة..

تتهيأ شمس الجمعة لتغادر ظهيرتها.. تلملم شعاعها المتسلل الى قيعان الأشجار الكثيرة المتناثرة في تلك القرية الراقدة على أطراف همومها.. ينطلق الصغار من أسر الغرفة الوحيدة التي يعيشون بين جدرانها الى الرمال البيضاء الممتدة أمامها في الفضاء.. يتقافزون حول الاوزة البيضاء.. تهرع اليهم.. تتلمس فتافيت الخبز التي تحملها أيديهم.. تتبعهم وهم يدسون اقدامهم بين الأوراق الخضراء التي يزرعها الأب ويعتني بها طوال النهار، واجزاء من الليل.. فهي المصدر الوحيد الذي ينفق منه على الاسرة.. يبيع حزم البقدونس والجرجير والبصل ويعود ببعض نقود لا تكاد تكفيهم.. وأحيانا كثيرة يتغيب بعضهم عن المدرسة حينما لا تكفي اجرة المواصلات الا لأحدهم، فيمكث الباقون يلعبون مع أوزتهم الوحيدة.

يتهيأون في يوم اجازتهم للاحتفال بالاوزة .. يمسكونها بعد مطاردة ممتعة مثيرة، وقفزات فوق الاحواض الخضراء... يربطون شريطا اخضر حول عنقها الطويل المعقوف.. يحتضن أحدهم علبة فارغة من الصفيح ينقر عليها، فتهرع الاوزة بلا

ارادة في كل الاتجـــاهات، تتلمس طريقـــا للهـــروب من تلك الاصوات. فيخيل اليهم أنها ترقص.. تملؤهم النشوة ويغمرهم السرور.. يضحك الابوان وهما يرتشفان شاي العصاري.. يصفق الجـمـيـع للاوزة التي تندفع بصـدرها الغـجـري، وساقـيـهـا الشامختين في الحلبة الصغيرة المحكمة.. يتبادل الصغار التصفيق والنقر على علبة الصفيح، ترتفع الاصوات والقهقهات.. تختلط ضحكاتهم بحركاتها المتسارعة. ويمتد الحفل لوقت غير قليل حتى يسري التعب لاوصالهم الغضة، فيخفت ضجيجهم. ويقل حماسهم كلما انحدرت الشمس ناحية المغيب، وينتهي السامر بكلمات متكاسلة تخرج من بين شفتي الاب: الاوزة كبرت يا أولاد.. الجمعة المقبلة موعد الوليمة الكبرى.. وليمة الاوزة التي طال انتظارها.

توزع الام ابتساماتها على وجوه الصغار، التي يمتزج فيها الحزن لقرب فراق الاوزة بشوق كبير لوليمة لذيذة تكفيهم لايام متتالية. أما الاب الذي يتلهف لوجبة دسمة ترم عظامه.. فيتسلقه الهم مفكرا في توفير المال اللازم لشراء أوزة صغيرة اخرى، يتركها في الساحة الخضراء امام الغرفة، يقدم لها الفتافيت المتبقية من طعام البيت ليرقب نموها مع الصغار يوما بعد يوم.

مع الخيوط الاولى ليوم الوليمة يهب الصغار من براءتهم. فرحين بألوان الطيف التي تطل من وجوههم.. يوقظون والديهم كما يفعلون يوم العيد. أما الصغير فيدفن رأسه في الوسادة

ويخبىء جسده النحيل تحت الغطاء.

على مائدة الافطار جلسوا يوزعون الادوار.. فالام تهيىء الاواني والماء والنار، والاب يشحذ سكينه، أما الصغار فينطلقون لتزيين الاوزة بالاشرطة الملونة للاستمتاع برقصات الوداع معها..

يبحثون عنها بين الاوراق الخضراء في المساحة الممتدة الى نهاية أبصارهم.. وبين جدران الغرفة وحولها.. لم يعثروا على اثر لها، ينطلقون للمزارع المجاورة.. يفتشون عنها.. ينادونها.. بأصوات دافئة وسعادة تملأ العيون..

ينهكهم التعب وهم يبعثرون خطواتهم المتثاقلة في كل الاتجاهات.. يمسحون بأكمام ثيابهم البالية حبات العرق التي تنحدر من عيونهم..

يمر وقت طويل.. قبل أن تتراءى لهم.. يهرولون ناحيتها.. يلمحونها تفترش ريشها الابيض.. ترقد على الارض بلا حراك، بالقرب من رجل ضخم، يتوسط حقل القمح الكبير الذي يملكه.. تطل من عينيه شظايا غضب، ومن منقارها المغلق، بقايا سنبلة خضراء.

صفقة أبوعرب..



صفقة أبوعرب..

انحشر «محمد العربي» مع رفاقه في الطائرة، تتصارع في رأسه أفكار المستقبل، والصفقة التي يحلم بها!

ترك جسده المكبل في مقعد الطائرة.. انسل بذاكرته الى اليوم السابق..

تذكر كيف اخبرته زوجته أنها ستوبخ هذا الاحمق الذي التصقت اصبعه بجرس الباب، وسبب لها ولأمه المريضة وابنتهما الضريرة «شمس» التوتر والخوف. حين انطلق صوت الجرس ليحطم هدوء البيت، ويشعل الفوضى في اركانه المتهالكة، ويبعث الذعر في نفوس الاسرة وهي تتهيأ لتناول طعام الافطار..

عندما فتحت الباب.. فوجئت به يتراقص كالمخمور، ببزته العسكرية، وعينيه اللامعتين، تنطلق منه ضحكات مجلجلة، ملأت أركان البيت.. انتشر صداها الى البيوت المجاورة، التي راح اصحابها يختلسون النظرات، لمعرفة سر الضحكات التي لم يألفوها تنبعث بقوة من بيت الجندي «ابوعرب».. في ساعات الصباح الباكر.

تسمرت الزوجة في مكانها.. احتضنها.. طبع القبلات على

رأسها وخديها.. رفعها الى ذراعيه.. انطلق بها الى داخل البيت..

سيطرت الدهشة على الجميع لعودته المفاجأة.. وللفرحة الكبيرة التي تملأ وجهه..

عانقهم.. قبلهم بابتسامته التي لا تبرحه.. جلس معهم الى صينية الافطار، يرمق زوجته بشهوة فاضحة..

قالت: اخمن انك حصلت على ترقية.. لذلك أتيت قبل موعد اجازتك لتزف لنا البشرى.. لكنك..

قاطعتها الام وهي تنظر ناحية «ابوعرب».. رأيتك يا ولدي منذ يومين تطير في السماء.. تعلو وتعلو بجناحين اخضرين وابتسامتك كما هي الان.. تملأ الدنيا!

- استطيع تفسير الحلم يا جدتي.. قالت شمس.

نظر الى وجهها.. احتضنها.. هيا فسريه يا دكتورة.. قالها «ابوعرب».. انحدرت من عينيه دمعات حاول اخفاءها..

- سيكون لك منصب كبير، ستكون وزيرا أو رئيسا!

جلجلت ضحكاته من جديد وهو يمزق رغيف الخبز.. ويدعوهم لتناول طعام الافطار..

اقسمت الزوجة الا تضع لقمة في فمها قبل ان يخبرهم باللغز الذي بات يحيرهم!

انفرجت أساريره، أخبرهم انه سيسافر غدا الى العراق!

تلفت «ابوعرب» حوله.. الوجوم يسيطر على الوجوه.. والصمت يحتل اركان الطائرة الا من أزيزها.. تماما حين توقف الكلام، وخيم الوجوم على وجوههم.. ضربت الزوجة صدرها..

شهقت الام. قال الجميع بصوت واحد.. العراق!

- نعم.. فطالما حلمت ان أسافر اليها، كنت انتظر هذه الفرصة بشوق كبير..

- يا بني.. العراق بها مشاكل.. واحنا مش ناقصين؟

- هذه أوامر يا أمي.. وانا سعيد جدا بها!

- اعلم يا أبي انك تحاول تدبير المال اللازم، لعلاجي في الخارج، ليعود النور الى عيني.. لكني اقسم لك اني افضل ان أسمع صوتك ينير حياتي وانا عمياء، دون ان تتفتح عيناي فلا أراك.. أن أظل حبيسة الظلام في ضياء قاماتنا، أفضل من النور الواهي الملطخ بظلمات حالكة، تنبعث من مذلة وبقايا كرامة.. فضلا عن فقدانك.. يكفي انك خرجت من الحروب السابقة سالما معافى.. لماذا تريد ان تلقي بنفسك الى الهلاك؟ وماذا عنا.. ألم تفكر فينا؟ ألم تفكر في جدتي المريضة، وأمي التي باعت مجوهراتها لتخفف عنك عبء العلاج الذي احتاج؟

انطلقت اشارات لا ارادية من يديه المتحررين من حزام المقعد وهو يحدث نفسه.. لم استطع اخبارك يا ابنتي أن هذا مفروض علينا.. لن تفهمي.. لم يعد لدينا خيار.. لقد استبدلنا ارادتنا بالقمح الذي نأكله!!

هز رأسه وهو يتذكر انها لم تكن مقتنعة بكلامه حين قال لها: صحيح اني نجوت من الموت في الحروب السابقة.. لكني لم أحقق لنفسي ذاتها!.. وكيف لا افكر فيكم؟ وانتم كل ما املك في هذه الدنيا.. غدا تحصلين على رسالة الدكتوراه، وتصنعين

لنفسك مستقبلا عظيما، واسما لامعا.. ألا يحق لي بعد هذا العمر ان اصنع لنفسي مستقبلا مثلك؟ وقد واتتني الفرصة، وهذا كله من اجلكم.. سأجعل الشبان يتنافسون على خطبتك يا شمس.. بعدما يتغير حالنا للافضل..!

- أي حال، وأي أفضل.. قالت الزوجة بعد ان مسحت دمعة انحدرت على خديها: لا نريد مستقبلاً ولا أموالاً.. نريدك معنا. هل تريد ان تحارب اهلنا هناك؟ كيف يحلو لك ان تكون سعيدا وانت تتلقى تعليماتك من الغرباء؟ كيف تفكر في مستقبلك ومستقبلنا بهذه الطريقة؟ ليكن في معلومك انه يحرم علينا فلس ملوث واحد تأتي به من هناك..

قطع عليه أحد الجنود في الطائرة افكاره حين قدم له زجاجة عصير.. ابتسم له وهو يتذكر كيف انه ابتسم ايضا لزوجته وهو يؤكد لها سعادته بتنفيذ تلك الاوامر..

قائد الطائرة يعلن الاستعداد للهبوط التدريجي.. يرين الصمت في نفوس الجنود.. يتراقص الوجوم في عيونهم.. تتسلل الى نفسه كآبة مريرة. لقد انتشر الخبر في القرية قبل ان يحل المساء.. لم يقدر ان يبتلع مع قطرات العصير، تلك التهكمات التي انطلقت كالسهام من الجيران..

فهذه أم احمد تقول لزوجها بصوتها المرتفع: لماذا لا تسافر وتأتي لنا بالاموال كما يفعل «ابودراهم»؟ فيرد عليها: تقصدين «ابودينار».. وتقطع ضحكاتهم جارة اخرى: غدا يبني مكان البيت قصرا كبيرا من جماجم العراقيين!

انقـــذني هبـــوط الطائرة من توابع الزلازل التي كـــانت تجتاحني..

اصطحبـونا الى ثكنات يديرها غـربـاء، تناهت الى مـسـمعيً رطنات عبـرية اشـعلت نارا دفينة كانت ولا تزال تحـرقني طوال سنوات سـلام كـاذب انخـدعت به مع اخـريـن.. لغـة لهـا حـروف مقيـتة.. كئيبـة لا اتقنها.. لكني سـمعتهـا في حـروب سـابقة.. اسمعها الان تنبعث همسا من غرفة مجاورة..

من جـديـد.. تراقـصت الصـفـقـة امـام ناظري، وعـاودتـني ابتـسامـتي.. فـرحت اجتـر لرئتي هواء ظننته فـقـد.. فمـلأت به روحي من جديد..

سلمـونا عـتـادنا.. شـرحـوا لنا الخطة عن طريق مـتـرجم.. أمهلونا وقتا قصيرا لنبدأ.. ارتديت حزاما ناسفا حول خصري.. انطلقت قبل البداية الى الغـرفة المجاورة، انفذ خطتي.. أحقق الحلم الذي رأته امي.. واتم الصفقة التي تمنيت..

مع وهج الانفجار.. ابصرت جسدي يرقد بين اشلاء كثيرة.. تراءت لي شمس تبصر ملء عيونها.. وتضحك ملء أحداقي!!

عناق القطرات..



عناق القطرات..

يزداد تساقط المطر.. يتحول رذاذه لحبات ناضجة ومياه منهمرة تهاجم رأسي وثيابي.. أركض خطوات قليلة الى محل الزهور..

رفعت رأسها .. أطلقت ابتسامة عذبة من ثغرها الكرزي مرحبة بي.. واصلت انحناءها تجاه سلات الازهار والاغصان، تنسقها.. تنثر عليها قطرات الماء من زجاجة تحملها في يدها.

طلبت منها باقة ورد اقدمها لزوجتي في عيد ميلادها..

همست.. كم هي محظوظة.. أجمل اعياد الحب تأتي في الشتاء!

لم يكن سوانا في المحل..

اختلست النظرات الى وجهها وهي تنتقي الورود والاغصان.. لويت عنقي تجاه الزهور تارة، وتجاه المطر المنهمر في الخارج تارة اخرى.. لم اقدر الا ان اثبت نظري صوبها وهي تعد الباقة.. تلتفت ناحيتي بين الحين والحين بابتسامة تسري في عروقي، تبعث فيها دفئا كنت افتقده في ذلك الجو البارد..

اختلطت دقات قلبي بنقر حبات المطر الساقطة على زجاج

المحل.. امتزج في عيني عودها بأغصان الازهار... خلتها وردة تتراقص في حديقة جميلة، بعينيها الخضراوين الواسعتين، وشعرها الشمسي المتهدل على عنقها..

بعدما فرغت من اعداد باقة الزهور... ناولتني معها ابتسامة سكنت روحي..

قبضت على يدها الدافئة..

- لكنك متزوج..؟

عاهدتها أن اغزل لها شتاء من غيومي العطشى لورودها .. يحملها معي الى اطراف المجرة البعيدة هناك، عند نقرات الحياة ونبضاتها!

همست.. سأنتظرك..

تركت يدها، وتركت قلبي معلقا في اغصانها.. مشيت خارجا تتبعني عيناها.. لوحت لها من خلال القطرات المتعانقة على شغاف قلبي.

لم احتفل مع زوجتي بعيد ميلادها.. كثيرا ما كانت تكتشف خلو الفراش مني، فتتبعني الى الشرفة.. تسألني عن شرودي وعن القلق الذي يلفني؟

مر يومان بطيئان، وانا أتحين الفرص لافراغ البركان الذي يجثم على صدري..

كانت تحاول استرضائي.. تعدني باصلاح أي شيء.. الا الانجاب!

لم تشفع دمعاتها لرغباتي الحبيسة..

أقصيتها من حياتي..

اسرعت بنشوة جارفة الى محل الزهور، يقودني عبق أحلامي..

كانت السماء مليئة بالغيوم..

لم يكن هناك شتاء.. ولا قطرات تتعانق على الزجاج!

نشوة..



نشوة..

تتسابق قدماي في الطريق الى البيت.. تقودني سعادة مفرطة، وبهجة عظيمة، لا أعرف كنهها. اتلفت يمينا ويسارا.. أراها مرسومة على وجوه، تحولت الى لوحات باسمة وأزهار جميلة تتهادى أمام عيني كرذاذ المطر الساقط في الربيع..

يحتل الصمت سمعي، رغم الحركة والضجيج المنتشرين هنا وهناك.. يتلاشى الزحام أمامي رغم امتلاء الطريق بالمارة.. ألوح لهم.. أحييهم.. أصافحهم احيانا كثيرة وابتسم في وجوههم.

تنتابني رغبة في القفز على الخطوط والاسراع أكثر وأكثر..

أتعجب لهذه السعادة التي داهمتني، وذاك السرور الذي اجتاحني فجأة!

أتساءل بقلب يرقص في تجويفه؟ فلا أسمع الا موسيقى تذوب مع دقاته.. أخشى أن تفضحني بين المارة.. فأرسم لقدمي خطوات متباعدة متسعة..

أتحسس جيوب سترتي المنتفخة باوراق وجنيهات تسلمتها للتو من محاسب الشركة.. قال لي: «كل شهر وانت طيب».. ناولني معها ابتسامة عذبة، سكنت روحي، وتركت مع جنيهاته

عبقاً يحمل مع نسائمه لذة من نوع خاص.

لكن السؤال عن سبب هذه السعادة لا يزال يحاصرني.. يتردد بين خطواتي المتسارعة؟

تقفز الى ذهني ابتسامة المحاسب الرقيقة، وهو يناولني الراتب.. ربما تركت في نفسي ذاك الاحساس بالسعادة.. لا أدري.. ربما؟ وربما تلك الجنيهات الحقيرة، التي أطلت بعد غيبة شهر كامل، هي التي ملأت نفسي بتلك النشوة الرائعة.. لا أدري.. ربما؟

لم تعد لي رغبة في معرفة أسرار هذه النشوة، ولم يكن لدي وقت في البحث عن أسبابها.. صار الأهم أن اعيش لحظاتها.. ألتهم الوان الطيف المنبعثة من عيونها..

لم أعرف أني وصلت البيت الا حينما التصقت اصبعي بجرس الباب.. انساب رنينه بانغام محببة.. فتمايل جسدي على موسيقاه..

ارتسمت ابتسامات زوجتي وأطفالي على قلبي، وأنا اعترف لهم اني جائع..

علقت سترتي.. ابدلت ثيابي.. كنت أول من يتربع على مائدة الطعام.. وضعت ذراعي على «الطبلية» وأسلمت روحي لفراغ لذيذ، جعلني احلق بين فضاءاته الواسعة..

تحركت أطراف أصابعي، تنقر على «الطبلية» نقرات خفيفة.. تسللت من فمي دندنات هادئة لها وقع جميل، أسرني.. وسحر كياني..

لم أنتبه لزوجتي وأطفالي وهم يرقبونني.. يقفون متسمرين في أماكنهم.. يحملون أطباقا في أيديهم..

اتسعت ابتسامتي، وارتفعت دقات أصابعي وصدح صوتي بالغناء..

لمحتهم يضعون الأطباق على الارض.. يهرولون ناحيتي مصفقين بأكفهم، تملأ وجوههم الابتسامات.. حزمت زوجتي ردفيها بمنديل أحمر كبير.. عقدته عند طرف الخصر.. ألقت حذاءها في ركن بعيد من البيت.. رأيتها تدور في الوسط.. ترقص.. ترفع ذراعيها في الهواء، والاطفال يصفقون بحماس مفرط.. تنطلق من أفواههم صيحات وزغاريد ملأت المكان..

كانت تميل بجسدها النحيف في كل الاتجاهات بخفة ومهارة.. تنقل خطواتها برشاقة وليونة في حلقة اتسعت عند طرف «الطبلية».. تعالت أصوات الغناء والتصفيق.. ارتحلت الى أسماع جيران ومارة.. توافدوا الى البيت.. اخذوا أماكنهم حول الحلقة التي ضاقت وضاقت.. انحصرت في محيط «الطبلية» التي ترقص فوقها زوجتي.

اختلط التصفيق والغناء بنقر الملاعق على الاكواب.. انحشر في البيت بشر كثيرون.. رجال ونساء وصبية.. تحلقوا حولنا في دوائر متزاحمة.. كان بعضهم يجلس على ركبتيه حول «الطبلية»، فيما وقف اخرون خلفهم، عند الدائرة الاوسع فالاوسع.. تزاحموا عند الاطراف البعيدة من الحلقة.. كنت ألمح بعضهم يقف على المقاعد الخشبية.. وتطل رؤوس اخرين من فوق المكتبة

والدولاب.. انشغل الجميع في متابعة الرقصات.. انصهروا في التصفيق والغناء..

لم أكن أعلم أن الليل داهمنا، الا عند انقطاع الكهرباء فجأة.. تحول المكان الى ظلام دامس..

توقف الغناء والتصفيق والنقر.. تعالت بعض الصيحات والصافرات.. امتزجت الفوضى بالظلام.. لم أعد أتبين وجوههم.

نهضت من مكاني بصعوبة بالغة.. شعرت بألم شديد في مفاصل ركبتي.

اندفع الجمهور للخارج يتخبطون في بعضهم وفي محتويات البيت.. يطلب بعضهم من الاخرين التجمع في بيت اخر مضاء لاكمال الليلة الجميلة.

لم تكن لدي طاقة لذلك، بعدما امتد الارهاق الى أوصالي..

حملت جسدي المتعب عبر الظلام الدامس الى غرفتي.. اصطدمت قدماي باشياء مبعثرة في أركان البيت.

القيت جسدي المنهك.. أبحرت في نوم عميق..

في ساعات الصباح الاولى.. وقعت عيناي على فوضى تملأ البيت.. اطباق ارز وخضار مسكوبة على الارض.. اجزاء متناثرة من قطع دجاج.. ارغفة.. ملاعق.. أكواب مبعثرة في الزوايا.

حاولت كتم غيظ تملكني حين رأيت أطفالي يرقدون في سبات عميق بين أرجل المقاعد المتكسرة، المتناثرة هنا وهناك..

بحثت عن زوجتي في بعض جنبات البيت.. عثرت على حذائها!!

لقاء مع شاعر..



لقاء مع شاعر..

ترجلت من سيارتي التي اوقفتها قبالة بيت لم اكن متأكدا انه بيت الشاعر الذي وعدته بالزيارة، لم افلح في العثور على اسم لصاحبه او جرس لبابه.. انطلق بصري يتلمس فضاءات الشارع الذي خلا من المارة في تلك القرية الناعسة قبيل الغروب، ببيوتها الارضية المختبئة خلف اسوار الصمت المطل من ابوابها..

كومت اصابع يدي.. ضربت بقبضتي على الباب الحديدي مرات ومرات.. تسلقتني هواجس حيرة.. لا أدري دقة العنوان.. تساءلت: كيف اثبت للشاعر اني أتيت في الموعد المتفق عليه.. واني أقف على باب التردد بين العودة خالي الوفاض.. والرغبة في مقابلته؟

آثرت التريث. فقد وعدت مدير التحرير الذي خصص للمقابلة مساحة في الملحق الادبي بصحيفة الغد، أن تكون المقابلة مع الشاعر جاهزة قبل المساء.

مضى وقت غير قليل حين فتح الشاعر الباب، بقامته الفارعة ووجهه البشوش يحمل بين ذراعيه طفلا يختبىء تحت طاقية زرقاء، بعينيه الواسعتين وهما ترسلان ابتسامات تأسر القلوب..

اعتذر الشاعر وهو يرفع الطفل في الهواء ويلقفه قائلا: هذا العفريت هو سبب تأخري في فتح الباب. سرقني الوقت وانا مستغرق معه.. احاكي اصوات الماعز والديك.. يطوف اركان البيت ممتطيا ظهري..

أحاط الطفل بذراعيه.. اجلسه على كتفيه.. دعاني للدخول وعبارات الترحيب تسبقني.. تبعته عبر حديقة تحيط بالبيت الكبير الى غرفة جانبية مليئة بالكتب المبعثرة على أرفف خشبية تكسو الجدران.. هيأ للطفل مكانا يجلس فيه على الارض.. أفرغ أمامه كيسا من الالعاب البلاستيكية الملونة، ودعاني للجلوس على مقاعد مريحة تحتل ركنا من اركان الغرفة، غير بعيد عن الطفل الذي قبض على بعض المكعبات بيديه.. يبعثرها حوله، او يدق بها على الارض.

لم يكن لدي وقت لاضيعه.. اخرجت جهاز التسجيل الصغير من حقيبتي، وبدأت تسجيل حوار مع الشاعر..

حاورته بشغف ماكر.. استدرجته لمحطات في حياته لم يتطرق اليها أحد قبلي.. طرحت عليه شباك اسئلتي لأغوص في أعماقه.. انتزع منها اجابات عفوية سريعة..

كان يتريث، شاخصا بصره ناحية الطفل. كأنه يستشيره او يستلهم اجاباته وافكاره من حركاته البريئة، وحروفه الملائكية.. احيانا ينهض ليحمله بين ساعديه.. يعتصره ويطبع على جسده قبلات متسارعة، يعيده بعدها الى ألعابه لنستكمل الحوار..

مر الوقت سريعا وانا مستغرق في تسجيل حديثه الممتع،

وذكرياته عن كل قصيدة كتبها.. توقف عند شواطىء في حياته عزيزة على قلبه.. واخرى مليئة بالهموم والاحزان والوحدة التي استبدت به قبل مجيء هذا الحفيد الذي ملأ حياته.. أعاد لها التوازن والاستقرار.. أطلعني على صورة صغيرة له يضعها في حافظة نقوده.

انهيت المقابلة.. تحدثنا في مواضيع مختلفة.. احتسينا الشاي.. نقلت بصري بين الصورة والطفل الذي يتلفت في كل الاركان.. ناداه جده الشاعر.. فأقبل يحبو ناحيتنا.. أمسك بحافة الطاولة القصيرة مستندا اليها، لا يكاد يعلوها بقليل.. لامست قدمه احد المكعبات المتناثرة على الارض، فانفرجت أساريره عن ابتسامة ملأت أركان الغرفة.. وأبانت لؤلؤة بيضاء كانت ترقد في ثغره الغض.. أطلق يديه في الهواء كعصفور يوشك ان يحلق في فضاء الغرفة.. وانطلق يغرد بضحكات متواصلة، دفعتني لتقريب الجهاز منه وتسجيل زقزقات صوته البريء، فأسرع جده لتحريك تلك القطعة البلاستيكية بين أصابع قدميه.. مناديا اياه بحروف متقطعة، فتواصلت ضحكاته من جديد. وانا اسجل صوتيهما معا..

شكرت الشاعر وانا اهم بالانصراف.. دعاني لجولة سريعة بين زوايا مكتبته الخاصة.. ذكرته بالوقت القليل المتبقي لتفريغ المقابلة على ورق قبل تسليمها لمدير التحرير. اقسم ان يهديني بعض الدواوين التي اختارها بنفسي..

انسل الطفل يحبو خارج الغرفة الى الحديقة والفناء

الواسع.. وقف الشاعر بجواري يشير بيديه الى عناوين كثيرة في مكتبته جذبتني وسببت لي حيرة في المفاضلة بينها، حملني معظمها، ووعدني بنسخة من ديوانه الجديد حال طباعته..

بعد غروب الشمس صافحته عند الباب.. أدرت مفتاح سيارتي.. لوحت له مودعا.. لم أتبين ملامح امرأة تهرول ناحيتي في الظلام.. تطلب مني التوقف باشارات من يدها.. لم يكن لدي وقت للتوقف.. تناهت لمسمعيً أصوات جيران تجمعوا بسرعة في المكان.. يرددون انه خرج يحبو من الباب.. شعرت ان احد اطارات السيارة اعتلى كومة لينة وانا انطلق بها مسرعا قبل ان يدركني الوقت.

كان الشاعر يركض خلف سيارتي.. يصيح.. اعطني الشريط.. أريد سماع صوته؟!

نزوة..



نزوة..

طلب مني بالحاح مقابلة والد الفتاة التي يدخرها للمستقبل.

يا له من زمن مسروق مر سريعا صامتا رغم ضجيجه وقسوته.. ألقى على كاهلي عشرات السنين.. وها هو يدفعه الى مقدمة طابور الفتوة وريعان الشباب..

تأخذني أفكاري بعيدا بعيدا.. بل قريبا كأنه بالامس حين كان رضيعا، وطفلا يتعلم المشي والكلام.. وصبيا يشاكس امه في البيت وزملاءه في المدرسة..

في الطريق.. أشعر بأني امشي في حلم يقيد خطواتي.. يمنعني القفز على مخاطره.. شيء ما يطاردني، وفجأة يلتف امامي.. يقف في طريقي فيزداد خوفي.. تتسارع انفاسي. لكني سرعان ما انجو واشعر بفرحة عارمة.. فتتسع خطواتي بعض الشيء، بعدما اتيقن أني ما زلت أمشي في حلم ثقيل..

أحاول التخلص من تلك المشاعر رغم تثاقل خطواتي.. لكني لا افلح!

تقودني أفكاري مرة اخرى.. تتمايل في رأسي النشوة لذاك

الرضيع الذي تخلى بالامس القريب عن ثدي أمه.. مودعا الطفولة والصبا.. طالبا الزواج.

اشتم رائحة سعادة في الافق.. تنبعث من لقب جديد يمنحني اياه ذاك الحفيد الذي ابحث عن أم له.. أتعثر بين النشوة والسعادة في مساحة حزن تسكنها اشباح مخيفة لمصاريف الزواج وترتيباته؟ واعباء ما بعد الزواج لفتى وفتاة لم ينتهيا من دراستهما!

انتهى طريقي الى احد الاحياء التي تحرس أطراف البلدة.. وقفت امام بيت لا أعرف بابه؟ فالجدران كلها صفيح متشابهة..

على الطرف الابعد أطلت فتاة جميلة من بين الواح الصفيح..

صافحت والدها.. اجلسني على حصيرة متهتكة، تحيط بأركانها بعض الاواني والاكواب. وبقايا اضاءة تنبعث من الداخل..

أومأت اليه اعرفه بأني والد زميل ابنته الحسناء في الجامعة.. قاطعني بالترحاب الكثير.. طلب منها ان تصنع لنا شايا كانت أدواته مبعثرة أمامنا..

تقدمت ناحيتنا تحمل كوبين من شاي، لم اذق أحلى من طعمه..

انطلقت عيناي ترقبانها .. بجسدها الفارع ونهديها النافرين ووجهها الملائكي..

انتهزت لحظات صمت تجلت مدوية.. تذكرت كيف انه طلب

مني اختبار اختياره، وتفحص انوثتها اللافتة، وجمالها الرائع،.. «واذا لم تعجبك فاصرف النظر».. هكذا قال بعدما توسلني الذهاب للتعرف عليها وعلى أهلها!

«اختيارك موفق يا عفريت».. هكذا حدثتني نفسي..

حاولت تذكر ليلة زفافي والليالي التي.. لكن والدها قطع تفكيري بصوت جهوري مستفسرا عن سبب زيارتي؟..

سمعت ضجيجا للساني حين اندفع راقصا في حلقي وانا اطلبها زوجة.. لنفسي!!

عاد الصمت يلف المكان.. تسارعت دقات قلبي.. مرت لحظات قلقة، متباعدة، كأنها دهر. قذفتني الى قاع اليأس مرات ومرات، لولا مباركة والدها التي انتشلتني الى شاطىء أحلام مخبوءة.. اعادتني الى جذوة شباب.. ورغبة منه في توطيد التعارف.. طلب اليها ان تجلس معنا.

كنت احلق فوق السحاب وانا اقبض على يدها خلسة منه..

غمرتني نشوة عظيمة في طريق العودة.. تسارعت خطواتي وانا اقترب من البيت.. لمحته ينهض من عتبة الباب مندفعا نحوي..! يحمل جثة زهرة بين يديه.. يقطع اوراقها.. ورقة.. ورقة!



الوليمة..

الوليمة..

لم تهدأ حركة زوجي.. لم يكف عن الدوران في أركان البيت الصغير!

أعرف الاحزان التي تحفر على جبينه المقطب علامات التجهم والاسى، بعدما أنفق اخر قرش من مرتبه لتلبية مصاريف الوليمة..

لم يكن مضطرا لها.. وجد نفسه مدفوعا للمجاملة.. ووجد قبولا سهلا من ضيوفها!

يدخل المطبخ على غير عادته.. يزرع قدميه على غير هدى.. يكوم أصابعه.. ينفخ فيها.. ينظر يمينا ويسارا كمن يبحث عن ملاذ، أو عن معطف يمنحه دفئا رغم حرارة الصيف..

طلبت منه أن يبقى معي.. يساعدني في التقشير والتقطيع.. يفتح المذياع المعلق على الجدران لنستمع الى موسيقى او اغانٍ.. كنت اتعمد صرفه عن التفكير في الازمة المالية التي تعتصره، واخفف عنه وطأة الهم بسبب تلك الوليمة.

أطلق من صدره تنهيدة افرغته من الهواء..

- لم يبق معي نقود بالمرة. تكاليف الوليمة يمكنها ان تعبر بنا

الايام المتبقية من الشهر..

تساءل بعينين لائذتين الى الارض..

- كيف ادبر مصاريف الطعام للاولاد قبل مجيء الشهر الجديد براتبه الحقير؟

رجوته وانا أمد يدي لالتقاط كيس الملح من الرف العلوي، ان يزيل العبوس عن وجهه بعدما وقعت «الفاس في الراس» واصبحت الوليمة أمرا محتوما.. امتلأ غيظا حين رآني اكتشف ان الكيس خالٍ تماما من الملح!

لم يتكلم.. فغر فاه وهو يضع يديه في جيوبه ويخرجها مقلوبة خاوية... لمعت عيناه.. أدار وجهه ناحية الباب.. تجاهلت النظر الى دموعه المنسابة لاتيح له التماسك، وابعد عن رجولته شبح الانكسار والمذلة.. اسرعت الى الجارة استعير منها بعض الملح لانقاذ الموقف..

لفظت من تفكيري كابوس الفواكه والحلويات التي لا نملك ثمنها.. حدثتني نفسي ان كوب الشاي يمكن ان يملأ وقت التسامر معهم بعد الوليمة.

انسلت من ثغره ابتسامة خافتة، ومن عينيه بارقة أمل. حينما أكدت له ان الله سيبارك في الطعام.. وأن الزائد منه سيكفينا للايام المتبقية من الشهر، بعد وضعه في الثلاجة، وانفاقه بطريقة حكيمة.

اقترب موعدنا معهم.. انشغلت في ترتيب المائدة، فيما دلف الى غرفة الاطفال يستدرجهم للنوم.. عاد اليه هدوؤه وتماسكه..

ربت على كتفي، ووعد أن يتظاهر أمامهم بالتهام الطعام.

بعد وقت غير طويل، تحلقنا مع الضيوف واطفالهم حول المائدة.. اوشك الضيوف على الانتهاء، وبقي طعام كثير.. هز رأسه قبالتي يؤكد ان الله بارك فعلا في الطعام.. التقت عيوننا وتبادلنا الابتسام خلسة. قال لي مداعبا على مسمع منهم، وعلامات الرضا بادية عليه.. كم هو شهي طعامك يا حبيبتي!

نهضنا لتوديعهم عند الباب.. حاولنا أن نبتسم، وأن نصافحهم.. لكننا اكتفينا بالتلويح..

أومأوا برؤوسهم مبتسمين..

كانت أيديهم مشغولة بحمل الاواني المملوءة بالطعام الفائض لاطفالهم!..



النجار..



النجار..

كان يشبهه الى حد كبير.. بجسده النحيف، وتجاعيده الموغرة..

دوما تشتهي رؤيته.. فهو يذكرها بأبيها الراحل منذ شهور قليلة.. بعدما جف بموته ذلك النبع الذي يروي حياتها عطفا دافئا..

لم يبق لها في الحياة سوى رجلين.. أحدهما زوجها، والاخر ذلك «النجار» الذي كانت تستمتع باستراق النظرات من وجه أبيها الماثل في وجهه..

أدارت ارقام هاتفه.. طلبت منه الحضور على عجل..

أدمنت دعوته لاصلاح بعض الخلل الذي يصيب الدولاب الكبير في غرفة نومها.. وقد صنعه ببراعة منذ أسابيع.. يبحث دائما عن الخلل الذي استدعى حضوره بهذه السرعة.. لا يجد.. ينقر بالمطرقة هنا وهناك.. ويمضي لحاله.. بعد أن تملأ جيوبه بالنقود.. وتملأ نفسها بالسعادة، وهي تنهل دون ان يدري، شحنات من العاطفة الابوية التي يبثها ذلك الشبه القريب بينه وبين أبيها..

انصـرف يقين النجـار، هذه المرة الى سـلامـة الدولاب من أي عطب..

حدثته نفسـه.. مـاذا تريد مني هذه المرأة الصغيـرة؟ مـا الذي أوقعني في طريقها؟.. ربما تصطنع اعطالا لتستقبلني في غياب زوجها؟

تسرع قدماه في الطريق اليهـا.. يزدحم رأسه بالافكار.. ينصت لصدى ينبعث من خطواته المتباطئة..

مركزي.. سمعتي.. كهولتي! لقد كبرت.. وهرمت معي ادواتي؟

تتسـارع خطواته.. يحلق طيـفهـا في خيـاله.. انهـا جمـيلة.. رائعة.. هي التي دعتني بنفسها. قالت اريدك في هذا الوقت..

لم يعلم انه وصل لبـيـتـهـا.. الا حـينمـا انكشف ثغرهـا عن ابتــسـامــة سكنت روحــه وهي تـرحب بـه.. تمنت أن ترتمي في احضـانه.. تعبث في شعـرات ذقنه القـمـرية.. تهـرول الـى المطبخ لتحضـر له ما يشتهي من الطعـام والشراب.. لكنهـا شعـرت فجأة بمرارة اليقظة والانتبـاه من أحلام محببـة على واقـع مؤلم مـرير.. أدركت ان عليها استعادة توازنها، فهو بالتأكيد ليس أباها؟

قال لهـا: مـا المشكلة هذه المرة؟

المشكلة أنت.. لماذا رحل وبقـيت بهيئتـه، تشبـهـه في كل شيء - كادت تقول ذلك..

همـست قـائلـة: المشكلة ان أبواب الدولاب تـفـتح بتلـقـائيـة عند مـرور القطار بجوار البيت.. يمكنك التأكد بنفسك يا سيدي..

طلب اليهـا ان تغلق أبوابه .. صعد الى داخـلـه، ليكتشف الخلل

من الداخل عند مرور القطار.. حدثته نفسه ان ظلمة المكان ستمنعه من رؤية أي خلل.. لكنها ستمنحه فرصة التحليل السريع لنوازع تلك المرأة.. وترتيب الخطوات التالية.. التي يجب ان تحسب بحذر شديد؟..

في ظلمة المكان.. لاح وجهها الملائكي الذي يشبه وجه حفيدته.. تشتتت أفكاره بين ربيع وخريف.. بين شباب يفور وكهولة ناضجة.

لم ير بوضوح بعض الفساتين والقمصان المعلقة في الخزانة رغم روائحها النفاذه.. تحسسها باطراف اصابعه.. تنازعته هواجس محببة انبعثت من اعماقه.. واخرى قادته بعيدا نحو اسرته واولاده.

تناهى لمسمعيه مزيج لاصوات بعيدة تقترب شيئا فشيئا.. خطوات تدنو من الغرفة لا يميزها.. فالباب مغلق والقطار يسرع بهديره الى حافة البيت.. اهتزت الارض والحوائط.. تسارعت دقات قلبه.. ترجرج الدولاب وفتحت أبوابه..

وجد نفسه امام زوجها.. ما زال يذكر هيئته حين أتى للورشة يطلب صناعة الدولاب.. بجسمه الضخم ووجهه العبوس..

لم ينطق الزوج بكلمة.. هز رأسه مستفسرا؟

غاصت روحه في كهولته.. هربت دماؤه.. ارتعش لسانه..

- اقسم لك يا سيدي.. اني انتظر القطار!

امرأة..

امرأة..

اقــتــرب مـن الميــدان المكتظ بالســيــارات والمارة.. يتــصــاعــد الازدحام.. يقود الحياة في ساعات الصباح الاولى نحو الصخب.. تختلط أصوات الابواق بصراخ باعة الصحف والصبية الواقفين عند أبواب الحافلات.. ينادون على الركاب..

الوجوه عابسة، تعلوها تقطيبات، والخطوات تتسارع كالوقت.. وتتقاطع كالهموم..

فجأة تتوقف الحركة !!

يسود الصمت.. تشرئب الاعناق ناحية البناية العالية التي تطل على الميدان؟

يا الهي.. انها امرأة عارية تقف على احدى شرفاتها.. انها تشير ناحيتي تطلب حضوري!!

توزعت أعين المارة وركاب الحافلات والسيارات بيني وبين الشرفة التي تتوسطها تلك المرأة العارية!

هممت بالفرار.. خشيت ان يثير ذلك فضول الناس، فيطاردوني..

تساءلت.. ترى ماذا تريد مني تلك المجنونة؟

انجذبت للشرفة.. تركت نظري مثبتا عليها.. اندفعت قدماي تحملاني تجاهها.. اعتذرت لكثيرين في الطريق وأنا اتعثر بأجسادهم المتدافعة.

بشر يتزاحمون عند الباب، تتعالى اصواتهم.. ترتفع ايديهم. أحاول التسلل بينهم.. أهرول حولهم ذهابا وايابا.. لا أجد ثغرة تسمح بمروري..

تحاصرني تلك المرأة العارية التي تطلب حضوري، أعتصرها في ذاكرتي، لم اتبين ملامحها بدقة.. لكن وجهها يشبه وجه زوجتي الى حد كبير.. الجسد نفسه، بتعريجاته وهضابه وأوديته.. نفس القامة! لون الشعر ذاته!

اتساءل: هل غادرت البيت في الصباح الى عملها؟.. ما الذي أتى بها لتلك البناية؟ من هم اصحاب الشرفة التي تطل منها؟.. لماذا جردوها من ثيابها؟..

كيف رأتني وسط تلك الجموع في الميدان؟ لماذا هي عارية؟

تدفق الدم في عروقي..

دفعت الناس بكلتا يدي.. قفزت فوقهم.. لامست الباب الحديدي.. كان موصدا باحكام.. يقف خلفه رجال لا يسمحون لاحد بالدخول؟

صرخت بأعلى صوتي: زوجتي.. زوجتي..

تجمعت انظار البشر تحدق في وجهي.. بدت شفقة على وجوه بعضهم.. وعلامات تهكم وسخرية على وجوه الاخرين..

دفعتني اياد قوية، وغرفتني اخرى للداخل.. مسحت حبات

العـرق الـتـي غطت عـيني وانـا أركض لصـعـود السلـم.. اتعـثـر بين درجـاتـه المكرورة وانفـاسي اللاهثـة.. تلاشت الاصـوات السـفـليـة شيئـا فشيـئـا.. أصوات اخـرى تهبط من أعلى وهـمـمـات.. انفلت حـذائي الجـديد من قـدمي.. لم اقـدر على التـقـاطه.. اسندت ظهـري لحـائط السلـم.. رجـال ونسـاء يحـملونهـا.. لا ينظرون ناحـيتي.. يركلون حذائـي.. يتدحـرج امـامهم.. يهـرولون بهـا الى الادوار السفليـة.. ينسحب الحذاء بين اقدامـهم.. أصـرخ بصـوت مبحوح: حذائي.. حذائي، لا يسمعني أحد.. لم اتبين ملامحها.. لكنها كانت عارية..!

قبل التقاطع بكثير..



قبل التقاطع بكثير..

لم اتوقع أن يقودني تسكعي في شوارع المدينة للقاء صدفة مفعم بالحرارة، مع صديق استوقفني بابتسامة ساحرة أضاءت تلك الخطوات التي تفصل بيننا، فالتصقنا خلف ضوئها في عناق حميم بعد غيبة امتدت لسنوات طوال..

لم يوقف عناقنا سوى تلك اللكزات التي أصابتنا من بعض المارة في ذلك الشارع المزدحم بهم وباعة ينادون على الزبائن.. يرفعون بأيديهم بضائعهم، مدللين على جودتها وانخفاض أسعارها.

انتحينا جانبا.. تساءلنا عن الزوجة واحوالها والاولاد ومراحل دراساتهم..

تحدثنا في لهفة وشوق عن ذكريات جميلة لسنوات دراسة قضيناها معا.. توقفنا عند محطات كثيرة في أيامنا الماضية، وأسماء عديدة في «الشلة» التي كنا ننتمي اليها..

سألني ببقايا ابتسامته: هل تذكر صديقنا «ابوالنصر»؟

قفز الى عقلي شبح ذلك الصديق.. كان يعمل معي في

الغربة.. اصابت حلقي مرارة خفية وانا أطرد صورته من خيالي.. بجسمه الطويل النحيف، وصوت مرتفع دوما، وعينين جاحظتين تطلان من فوق رؤوس الزملاء في التجمعات اليومية التي تلتف حوله، اثناء مشاجراتهم معه، وضجرهم لتطوعه بنقل أخبارهم وأسرار بيوتهم الى المسؤولين، وقصص وهمية يختلقها طمعا في كسب مودة المدير ورضاه!

افرغت جوفي من تنهيدة غائرة..

- نعم اذكره..

- لقد ماتت زوجته الاسبوع الماضي.. صرعتها سيارة وهي تعبر الطريق.

اومأت برأسي وانا أحدث نفسي: لقد استراحت المسكينة.. كثيرا ما كانت تلجأ لزوجتي، تشكو معاملته القاسية وضربه وشتائمه لها، وتصرفاته الحمقاء مع الجيران.. كثيرا ما كنا نتدخل للاصلاح بينهما.

تذكرت المرة الاخيرة حين دعتني وزوجتي الى بيتهما.. حكت لنا عذابات المسجونة خلف جدرانه.. الثلاجة والهاتف مكبلان باقفال لا تسمح لاحد باستعمالهما اثناء غيابه.. غرفة نوم مغلقة باحكام.. أثار خدوش وجروح على خدها..

- نسيت أن أخبرك انه ترك العمل ايضا وعاد الى الوطن.. انه يمتلك محلا للبقالة في هذا الشارع الرئيسي، عند التقاطع مباشرة. ستعرف مكانه بالضبط من صوت القرآن المرتفع المنبعث

من مذياعه طوال الوقت. يمكنك مواساته وتقديم واجب العزاء..

تبادلت مع صديقي الارقام والعناوين.. تعانقنا.. افترقنا على أمل اللقاء..

واصلت تسكعي.. لكني وجدت قدمي تقوداني لشوارع جانبيه.. قبل التقاطع بكثير!

البرتقال..

البرتقال..

«اتفضل يا بيه».. قالتها المرأة التي تجلس قبالة الميزان الموضوع على صندوق خشبي مقلوب.. هالتني المساحة الكبيرة التي احتلها جسدها المترهل، وبدانتها التي احدثت فوضى لافتة في المكان.. اقتربت من كومة البرتقال المرصوص، أطلقت يدي أقلب حباته.. وأسألها عن ثمنه..

جاءني الرد من أنثى تختبىء في ريعان شبابها.. يحملها قوام فارع.. تقف بالقرب من صندوق آخر للبرتقال موضوع على الأرض.. انحنت بجسدها ناحيته، أمسكت احدى حباته الصفراء.. رفعتها الى أعلى.. فتدلت من صدرها حبتان ورديتان اخريان.

- «النوع ده نمرة واحد يا بيه»..

تجمدت عيناي صوبهما، وامتزجت فيهما أنواع البرتقال.. لم أدر كم مضى من الوقت حين سمعت المرأة البدينة تصرخ فيها.. «انجري يا بنت.. هاتي الورق من الباشمهندس علشان نوزن للزباين».

«حاضر يا ولية».. قالت الشابة وهي تمر من جواري مسرعة.

تلملم شعرها الاسود المتناثر حول عنقها، وقد انبعثت من ثيابها روائح عطرية اقتحمت أنفي وامتدت الى اوصالي..

كان ردفاها يرتجان بخجل ككفتي ميزان.. اتسعت عيناي.. انطلقتا خارج الحدقات تتبعانها بخجل مزلزل حتى توارت خلف باب العمارة المقابل في الجانب الاخر من الشارع الضيق.

لم يعد سهلا ان أجمع شتات نفسي المتناثرة بين حبات امامي واخرى عالقة في الذاكرة.. ولم يكن من اليسير التخلص من مرارة اصابت حلقي بسبب هذا الباشمهندس الذي يتصارع في رأسي مع الردفين الرجراجين..

نقلت قدمي كيفما اتفق، اجول في اركان المحل.. اتوقف امام اكوام الفواكه.. لا ادري أي الانواع اختار..

باغتني صوت المرأة البدينة.. انتزعني من شرودي... «أيوه يا بيه.. بقالك اكتر من ساعة بتلف حوالين الفواكه.. عاوز ايه بالزبط»؟

- شوفي بنتك اتأخرت ليه؟ وبتعمل ايه عند الباشمهندس؟.. كدت اقول لها ذلك.. لكني لملمت اندفاع لساني.. ولم أجد من نفسي ترحيبا في الرد عليها.. وجدت خطواتي تقودني مسلوب الارادة ناحية تلك العمارة.. تلفت يمينا ويسارا.. وتسللت للداخل.. تسمرت للحظات أمام ابواب لا أدري ايها الذي تختبىء خلفه. ارخيت اذني اتلمس فتافيت الحروف التي قد تنسل، وفحيح الحركات المرتقبة.

تناهى لمسمعيَ صوتها.. «عشان خاطري ياباشمهندس.. كفاية

كده.. انا تأخرت»..

تدفقت دمائي في عروقي... التصقت في الباب الذي صدر الصوت من ورائه.. تهيأت لدفعه وفتحه بقوة أو كسره.. لكني رأيتها تخرج من الباب المجاور مبتسمة في وجهي، ممسكة بحزمة من الورق..

بقيت ملتصقا في الباب، انصت بشغف للاصوات الآتية من خلفه!!



أنتِ السبب يا أمي..



أنتِ السبب يا أمي..

تناولني امي عند المساء رسالة.. تقول ان السكرتيرة الجديدة للشركة أعطتها اياها!!

تدور بي الدنيا.. اتهاوى على كابوس مزعج لصورة أمي الواقفة أمامي وروائح المطبخ المنبعثة من ملابسها.. وملفات الشركة وعطر المدير..

تهرول أمي الى كوب ماء تصبه على وجهي..

- ماذا اصابك يا ابنتي؟ هل تحمل هذه الرسالة شرا، انك لم تقرئيها بعد؟

خرجت بعض الحروف المقتولة على شفتي.. انتِ السبب يا أمي!

- ماذا تقصدين يا ابنتي؟ وماذا تخبىء تلك الرسالة؟.. دفعتها في وجهي كي اقرأها.. لم اقو على فضها، ولم تكن لدي رغبة في رؤية سطورها الكريهة! رجوتها ان تنصرف.. كومتها والقيتها بعيدا على الأرض.

تذوقت مرارة دموعي وانا احدق في ايامي البعيدة.. تذكرت كيف القيت نفس الجسد قبل شهور على ذات المقعد، متلحفا

بقلق وتوتر للفكرة التي تحمست لها أمي بضرورة حصولي على عمل.

كانت دائما تقول: الخروج من البيت يا ابنتي يمنح الشباب فرصة لمعرفة الجواهر المكنونة وراء الجدران، يعجل بزواجهن، فضلا عن المرتب الذي نحتاج اليه..

قلت لها: لن اقدر يا امي. سأودع حياتي الممتعة. سأفقد صحبتي للغرفة التي تعج باشيائي. عروسي.. مرآتي التي أقف قبالتها ساعات.. أحدثها وأهمس في عينيها البريئتين.. جهاز التسجيل الذي كانت أمي تسميه توأمي..

تساءلت: اية حماقة ارتكبها وانا اهجر حياتي الخاصة واشيائي الجميلة؟ كيف ازج بنفسي الى التقيد بمواعيد الحضور والانصراف؟ حتى الوعكة الصحية التي قد تصيبني.. يجب ان اتجاهلها واتحامل على آلامي.. لكي لا اتهم بالكذب وابتكار الاعذار!

لم تشفع اعذاري وتبريراتي لالحاح أمي وحماسها.. قبلت على مضض، ونجحت بعد وقت قصير في الاندماج مع الزملاء والزميلات في العمل، توطدت علاقتي معهم كأني أعرفهم منذ طفولتي.. ما عدا المدير.. أحسست أني اعرفه قبل أن أخلق..

انطلقت عيناه ترمقاني بعيدا عن الوقت، بأدب جم، ولهفة لم يفلح في كتمانها.

بادلته الابتسام اكثر من مرة.. شعرت بانجذاب شديد نحوه.. لم اجرؤ على البوح حتى لنفسي.. فهو متزوج من امرأة جميلة

تأتي لزيارتنا في الشركة..

زادتني اللحظات المتعاقبة اعجابا به.. أسرتني شخصيته البسيطة، وثقافته العالية.. أدركت ان الثقة التي يمتلكها، صنعت منه نموذجا فريدا للرجل الودود الذي يحترم الانثى.. يقدر عقلها وعواطفها..

نما حبه في قلبي.. ترعرع.. وكنت ألمحه في طرفه.. يكاد يفضحه..

لم يبح أحدنا للاخر..

انصرفت امي ناحية الركن البعيد.. وانصرفت بكياني الى ذاك الشتاء الدافيء، رغم برودة الجو..

يومها دعاني لعمل فنجان قهوة.. السكرتيرة لم تحضر!

هرولت أمنّي نفسي ان يطول مرضها.. ألا تأتي بالمرة..

ملأت فناجيني باطياف سعادتي.. صنعت فنجانه من احلامي.. وضعته امامه على المكتب.. نهض واقفا وفي يده بعض الاوراق.. فتح ذراعيه.. اختبأت في عطره مسلوبة الارادة، وانطلقت رعشات جسدي الى احضانه!!

كدت أطير فرحا! وهو يكلفني بتوصيل رسالة الى سكرتيرته في نفس المساء، تخبرها بانتهاء عملها في الشركة!



عواطف..

عواطف..

انتفضت قدماي تحملان جسدي الهزيل.. تقفزان في أركان البيت كالملدوغة.. صرخت: هل سمعتِ المرأة يا خالتي؟

- بل رأيتها من نافذة غرفتي تهرول في الشارع مرددة.. «فتحوا الحدود».. لا أصدق يا عواطف!

أخيرا سأرى شقيقي يا خالتي؟

تعانقنا.. ارتشفنا مزيج دموعنا..

طافت أصابعها الحنونة حول رأسي المدفون في صدرها تتحسسه.. ملأتني السعادة.. غمرتني النشوة.. شعرت أن رأسي أكبر من مجرات الكون، وأبعد من سماواته البعيدة!

لم أتردد.. حملت جسدي المرتعش الى أطرافه.. غادرته.. ركضت ناحية الخط الفاصل عند الحدود..

لم يخطر ببالي أن أحمل شيئا لشقيقي بعد تلك الغيبة، غير جسد ترعرعت أحزانه على خريف الايام السوداء.. زرعتني بعيدا عنه، طفلة تروي ليالي غربتها.. بمرارة الانكسار وذل الحرمان!

عند الحدود.. بشر كثيرون يتقافزون فوق الحواجز.. نساء.. رجال.. اطفال.. يدفعهم حماس مفرط لنسيم الحرية، ورغبة في

قهر الشتات..

علقت ثيابي بالاسلاك الشائكة.. انتزعتها شرائط ممزقة.. فانتزعتني ذاكرتي عشرين عاما من حياتي الممزقة.. المتوقفة عند حاجز اليأس.

يومها.. انحشرت أمي مع اناس كثيرين يتزاحمون عند شاطيء المرفأ.. عيناها موزعتان بين الخوف والرجاء.. بين السماء والبحر.. وبين اطلال مدينة تتأهب لفراقها.. يملؤهما ذعر كبير.. وشفتاها ترتعشان من البرد والفزع، وربما من صدق كلمات مقدسات كانت ترتلها..

كانت تحمل صرة كبيرة على رأسها.. امسكت واخي بثيابها.. وجوه البشر المتزاحمين مثل وجهها.. الذعر والهلع يلفانها، والرغبة في الفرار ترسم عليها نبوءات الموت الآتي عند الاقدام.. ما عدا الاطفال.. كنا نسمع كلاما لا نفهمه.. ولا نعي ما يدور!

ما زلت اذكر بعض شظايا الكلمات.. يغتصبون.. يدمرون.. يمثلون بالجثث..

حين حضر القارب الكبير المتهالك، اندفع الناس اليه.. واندفعت امي معهم.. ودخلنا الى جوفه..

تكدسنا اكواما فوق بعضنا.. في قارب النجاة الوحيد الذي يأتي بالصدفة!

يا لها من ذكريات سوداء!

تتسارع انفاسي وانا اعبر الحدود الى الارض التي حرمت منها، والى دهاليز الزمن الغابر.. تتشعب الطريق أمام

خطواتي.. انحدر الى ممر ترابي خلف الجموع المتدافعة.. أحدق مذهولة في السحن المهرولة ناحية الاتجاه المعاكس.. اتفحص وجوههم.. اتوسم فيهم أن يبحثوا معي عن شقيقي، لعله بينهم يبحث عني خلف الحدود.. لكني لا اعرف شكله او ملامحه.. كل ما اذكره انه كان طفلا مثلي يلهو تحت شجرة الزيتون حافي القدمين!

عند انحدار الشمس ناحية المغيب، انطلق القارب يضرب امواج البحر باخشابه البالية..

امتلأ الافق بين السماء والبحر بظلام حالك.. وسحابات حبلى بمطر غزير انهمر على رؤوسنا.. وفجأة.. أطلقت أمي صرخة مدوية اخترقت سكون الليل وصمت الامواج.. كانت تغرز قدميها بعنف بين الاجساد.. تبحث عن شقيقي.. تنادي عليه!

فتشت عنه بين أكوام اللحم المبتلة المترامية.. وفتش معها الناس في جنبات القارب وقاعه المملوء بالماء..

صاحت في القبطان، لقد نسيت ابني عند الشاطىء.. صرخت فيه أن يعود؟ لكن هيهات.. فالمسافة اوغلت.. والنجاة تقترب من ركاب هاربين بانفسهم من القتل والدمار والاغتصاب..

رفضوا العودة.. قالوا لها.. سيجد من يعتني به..

القت امي نفسها من حافة القارب الى ظلام الامواج العاتية.. لتنقذه.. كنت على قناعة ان البلل سيصيب ثيابها بعدما تصحبه معها وتعود..

لم يستوعب عقلي الصغير ما حدث.. لم ابك.. احتوتني

خـالتي في احـضـانهـا.. كـانت تدفع عن وجـهي حـبـات المطر.. تمسحها.. دون ان تدري ان دموعها كانت تنهمر على رأسي!

لم تعد أمي.. ولم أر شقيقي؟

بقيت عشرين عاما عند خالتي يتيمة الحياة..

اتوقف لالـتـقـاط أحـزاني.. تسح عـيناي بالـدمـوع.. أرى عـبـر قطراتها الضبابية مستعمرات خربة تركوها مرغمين.. اشلاء بيوت اختلطت حجارتها بأثاث لم يتمكن اصحابه من تخليصه قبل الهدم.. اتذكر نساء وأطفالاً رحلوا وتركوها شواهد قبور.. لا يسكنها الا الدمار والاحقاد.. واشباح الآلات الوحشية!

اتعـثـر في اغـصـان يابسـة لبـقـايا شـجـرة زيتـون ملـقـاة على الطريق..

تقفز الى ذاكرتي آخر ما علق بها.. شجرة زيتون كبيرة تحرس بيتنا.. كان اخي يلهو تحتها غير عابىء برياح تشتد في جو بارد ينذر بأمطار آتية.. امسكته أمي وانطلقنا معها الى المرفأ.. الى حيث تفرقنا.. غرقت.. وبقي هناك.. وانطلقت حيـاتي بلا ارادة للاقامة الجبرية مع خالتي في بلاد النجاة والهلاك.

رغم انشغال الناس بالمسير وتلهفهم للقاء الاهل والارض.. رأيت بعـضـهـم يحـدق في الاجـزاء العـارية المطلة من ثـيـابي الممزقة..!

لم أبال.. اوقـفت بعـضـهـم أسـأله عن أخي؟.. عن بيت والدي الشهيد؟.. عرفوه.. وعرفوني.. وعرفوا حكايتنا.. قالوا: اذن انت عـواطف.. انه هنـاك يقف قـريبـا من شـجـرة الـزيتـون.. انطلقـوا

يسبقونني.. يزفون مقدمي.. وانطلقت في اثارهم.. تتعثر لهفتي في غبار اقدامهم!

اخبروني وهم يشيرون اليه.. انه شقيقك..

تماما كما رسمته في خيالي آلاف المرات.. يقف على ربوة عالية بالقرب من شجرة الزيتون التي كبرت.. اصبحت ضخمة يستر جذعها العملاق اطراف المدينة. منفوخ الصدر.. مرفوع الرأس.. يحتضن سلاحه بعشق.. يرتدي قناعا أسود، لا يبدو منه الا العينان..

وددت لو انتزعت ذاك القناع لأرى كما في ذاكرتي.. شاربه الاسود الكثيف ووجهه الابيض النضر المختفيين تحته..

اقتفيت أثر دموعي المنهمرة على الرمال وانا اندفع صوبه.. القي نفسي اليه.. اطوقه بذراعي.. اقتسم مع سلاحه احضانه..

القى عينيه الى الارض.. فادرك رفاقه المتوشحون عتادهم ان عليهم اخلاء المكان.. انفضوا من حولنا يتبعون عيونهم المرسلة هناك عند اطراف الربوة..

انتزعني من احضانه.. صفعني.. ألقاني الى الارض... ولحق برفاقه!

لم يعد متاحا..

لم يعد متاحا..

تنبعث الاصوات من أبواق السيارات الواقفة على ناصية أيامي.. تخترق أذني كعادتها.. تضربني الفوضى.. يجتاحني الملل.. أتلمس في فضاءات نفسي طوقا اتعلق به.. لكني لم افلح في العثور عليه في دهاليزها المعتمة.

ترتفع أصوات الابواق.. تزداد الصافرات.. لن اكترث لها.. لن ابالي لصافرات اصحابها.. لن اذهب مع احدهم الى الابد!.. هكذا أعاهد نفسي العفنة، التي تختبىء في جسد مترهل، انهكه تقلبهم عليه، وساقين اعياهما الانفراج لمن يرغب في المتعة والتسلية، ونهدين ملاّ تكوُّر الايادي، وعافا بصمات الاصابع. نعم.. لن اذهب معهم.. آن الاوان أن أعود من شتاتي.. ألملم بقايا خيبتي..

افتش عن كف مضيئة في ظلمة طريقي.. تقبض على ذراعي.. تغرفني الى بداية اخرى.. يقفز الى ذاكرتي طيف العم صابر، الذي لا يعلم شيئا عن مغامراتي التعيسة.. ينطلق من داخلي صوت مدو، لانتشال بقية حياتي من هاوية يكاد جسدي العاهر يلامس قاعها.. اركل الباب بقدمي.. أصرخ في وجوههم:

ارحلوا ايها الاوغاد. لن تغريني سياراتكم، ولا هداياكم.. لن اصعد بجوار أحدكم.. لم يعد متاحا بعد الان!

اضرب الباب بقوة في وجوههم.. أهرول ناحية أمي العجوز.. اقرأ في تجاعيدها فناجين أحزاني.. لا تكاد تسمعني.. ابكي على صدرها.. تغمرني رغبة في البقاء الى جوارها طوال العمر.. أسخر هذا الجسد الأبله لرعايتها..

ربما أدركت عذاباتي.. لكنها لا تستطيع عمل شيء.. وضعت يدها بالقرب من فيها تتهيأ لانتشال كلمات ثقيلة من جوفها.. خرجت الحروف مبعثرة ممزقة على شفتيها.. «صابر يا ابنتي جارنا الطيب، كبير القلب».. عاد طيفه يلفني من جديد وانا القي بدني على حافة الشقاء.. محدقة في اللاشيء..

كثيرا ما كان يهديني نصائحه، يوصيني بنفسي وأمي.. يأتي لرعايتها في غيابي..

ما زلت اذكر انه أتى لي بزوج اشاركه الحياة.. لكني رفضته.. كان ينهي زياراته دائما بالدعاء لي.. «العمر لحظة.. هداك الله يا ابنتي»..

شعرت برغبة جامحة في تطهير نفسي على يديه، واطلاعه على أوحالي التي اتعثر فيها.. تتناهى لمسمعيً بقايا صافرات في الخارج، وصدى أبواق.. تلوح، معها فتات هدايا وأشباح أيادٍ ثعبانية.

لم أتردد في الذهاب اليه..

انسلت دموعي وانا أدق بابه.. قادني الى أريكة قريبة.. لم

يسألني عن دموعي.. جففها بيديه الحانيتين.. تحفزت لأرجم أوزاري في محرابه.. بجسدي المرتعش.. وحلقي المتيبس.. بعدما تيقنت ان يديه ستحملاني الى بر الامان..

ربما ادرك ذلك..

مد يديه الى أزرار قميصي.. اطلقهما.. أغمضت عينيَّ.. وضممته بعنف.. بعدما ادركت انه لم يعد متاحا بعد الان!

النسخة الوحيدة..



النسخة الوحيدة..

يتناهى لسمعي وقع خطوات تدلف الى المكتبة وانا اعتلي كرسياً خشبياً، ادير ظهري للمدخل.. أعانق الأرفف التي تكاد تطالها قامتي القصيرة، اتناول الكتب المكومة بفوضى.. اعيد ترتيبها بعدما انفض الغبار عنها.

ألمحه بأطراف عينيَّ يتجول بصمت في بعض الزوايا. لم ينتبه لوجودي.. وربما تعمد ذلك.. بحث بشغف بين الارفف، كسبا للوقت المهدور في الحديث مع عجوز مثلي.. مد يديه يتناول بعض الكتب العتيقة.. يقرأ عناوينها.. يقلبها ويعيدها الى مكانها مرة اخرى.

لم يخطر ببالي للحظة واحدة وهو يقترب ناحيتي، ويطلق عينيه بين الاركان، أن يطلب الكتاب الذي ألفته منذ نصف قرن.. مؤكدا على اسم المؤلف!

سرت الى اوصالي سعادة كبيرة وانا اسمع اسمي ينطلق من شفتي شاب غريب في عمر احفادي..

اعتقد ان كلماته لم تصل الى سمعي، فآثر ان يبحث عن الكتاب بنفسه متجاهلا وجودي..

هبطت من الكرسي باجنحة السعادة التي حملتني الى الركن الذي اخبىء فيه النسخة الوحيدة المتبقية منه، والى الزمن القديم الذي يختبىء بين سطورها، حين كان عمري يندفع نحو العقد الثالث.. وتندفع خلفه فكرة كتاب.. تلبستني.. تحمست لها بشدة.. فرغت من تأليفه في زمن قياسي بتشجيع عروسي.. عرضت أشياء كثيرة من محتويات شقتي الجديدة للبيع.. استدنت نقودا من بعض اصدقائي واقاربي، لطباعة الكتاب.. توزعت نسخه الكثيرة بين المكتبات، وضاع العائد من الاموال بين السنوات الطوال وارباح المكتبات. فبهتت في خاطري فكرة التأليف من جديد بعد تلك التجربة.. وادركت القاطرة الاخيرة من سنواتي.. انشغلت في دوامة الوظيفة ومطالب الاولاد والاحفاد..

تمنيت ان يطول بحثه عن الكتاب بين الارفف، لامنح لنفسي فرصة أكبر للتفكير في بيعه، او الابقاء عليه في حوزتي.. شعرت اني امام عبء ثقيل لقرار مصيري.. خشيت أن اندم على اتخاذه في أواخر أيامي.. تساءلت مع نفسي: كيف افرط بسهولة في سطور من حياتي وحروف ولدت من روحي، وارتوت من أيامي وسنيني؟ اية حماقة ارتكبها وانا اتخلى عن النسخة الوحيدة التي احتفظ بها؟

كانت تأتيني الاجابة من بقايا الخريف الذي لا يلوح خلفه ربيع جديد.. من الايام القليلة الباقية التي تحتضر من حياتي.. وتوأد في قبرها النسخة الاخيرة التي شفعت لي بالعمل في تلك

المكتبة بعدما لفظتني الستون الى اسوار الوظيفة الحكومية!

توكأت على هواجسي قاصدا الركن الذي اخبىء فيه النسخة الوحيدة.. شعرت بقداستها وانا أحملها بين يدي.. تقدمت من الشاب اقدمها له..

سرت في اوصالي نشوة دفينة، ممزوجة بحذر الخوف على الرضيع، وهو يقلب صفحاتها الصفراء المتهالكة.. انسلت من ثناياها روائح معتقة نفذت الى قلبي.. قذفتني هناك عشرات السنين مرة اخرى.. كانت زوجتي تحتفظ بها تحت وسادتها، تغوص بين حروفها كل ليلة. تسألني وتجادلني في افكارها.. تخبئها تحت الوسادة عندما يحين وقت النوم.. حين كبر الاولاد، كنت أسعد برؤية بعض النسخ بين أيدي زوجاتهم واولادهم..

سألني عن ثمنها..؟

اختلط في ذاكرتي كل شيء.. النقود بالاعوام والحروف بالايام.. تشوشت رؤيتي وافكاري.. تلفت ابحث عن قشة اتعلق بها.. شعرت باليتم من جديد.. وبحاجة ملحة لقريب او عزيز.. او ذكرى ترشدني وتهديني..

اقترب من اذني وصاح مستفسرا مرة اخرى عن ثمنها؟

لم اكن اعرف ماذا يقصد.. انه يوقظني بعنف.. يهزني.. يدفعني لاقف بين سطورها المكرورة، وكلماتها المبعثرة!.. رحل الاولاد الى حياتهم.. غادرت الزوجة حياتها.. تجمدت أيامي عند الكلمة الاولى فيها..

فكرت مليا أن اهديها له بعدما اتعرف على اسمه.. وأدون له

بدموعي اهداء يليق.. تقديرا لحرصه على اقتنائها، وشغفه في الحصول عليها. فربما ساعدته في دراسته، وافادت اولاده واحفاده، وعاشت لزمن بعيد، حين يمحو الزمن، السطر الاخير من حياتي!

تهاويت على الكرسي امسح دمعات انحدرت من عيني، قبل ان ابوح له بقراري الاخير!

تناهت لمسمعيَّ اصوات حرشفات ما لبثت أن اخترقت قلبي.. جعلتني ارفع رأسي لا اراديا في كل الاتجاهات.. أرقب النسخة الوحيدة تندفع من يده الى ركن بعيد مرتفع من اركان المكتبة..

غادر المكان منشغلا بالحديث في هاتف صغير اخرجه من جيبه!!

كانت بقايا عينيَّ تقبض على الغلاف مشنوقا على حافة زاوية خشبية مرتفعة.. وصفحات من حياتي تتطاير في الفراغ، واخرى تهوي معي الى السطر الاخير..

المتسول..



المتسول..

غمرتني السعادة وأنا أتحسس جيوب سترتي المليئة بنقود اتسولها منذ الصباح.. انشغلت في لملمة أشيائي، متأهبا للعودة الى البيت.. مرت من أمامي، بجسدها المتمايل، وصدرها المترجرج، وشعرها المندفع خلفها. تبدو عليها مظاهر الثراء..

(يا الهي.. ما أجملها!).. لا أدري كيف انطلقت تلك الكلمات من فمي.

واصلت سيرها عبر ممرات الحديقة الكبيرة، الممتلئة بالزهور.. تابعتها بنظرات متعطشة لمزيد من النقود.. جلست على مقعد غير بعيد، تحيطه أغصان زاهية، تسللت أطيافها الى خديها، فزادتها انوثة.

كانت المرة الاولى التي أراها هنا.. فمعرفتي برواد الحديقة قديمة.. ايقنت انها غريبة، هكذا حدثتني نفسي.. ربما كانت سائحة جاءت لتتنزه بهيئتها الخلابة وعطرها الفواح..

تسمرت في مكاني.. أرمقها ملء عينيَّ التائهتين.. امتزج عودها بأغصانها، وشفتاها بورودها. فلم أعد أدري ايهما

الحديقة؟

منّيت نفسي بنقود كثيرة تعطيها لي..

بعثرت هيئتي من جديد.. اصطنعت اعاقتي.. تقدمت ناحيتها.. فسارعت الى حقيبتها.. أومأت اليها تفتحها...

وقفت أمامها.. انطلق بصري الى الاجزاء المكشوفة من صدرها وساقيها.. كانت تلبس فستانا قصيرا وتضع قدما على قدم..

لم أعد اقنع بطموحي القديم وقد اوشكت الشمس على الانحدار ناحية المغيب.. تناسلت رغباتي.. لم تعد النقود غايتي.. تمنيت أن أتسولها لنفسي.. اقضي معها بعض الوقت في بعض جنبات الحديقة التي خلت من الزوار..

كانت اصابعها تقبض على حفنة من النقود.. رفعت رأسها ناحيتي.. ارتسمت على شفتيها الرقيقتين ابتسامة حملت معاني لم افهمها.. لكنها أخذتني بعيدا صوب حلم بات يملأ رأسي.. وتدغدغ تفاصيله أوصالي..

افسحت لي مكانا بجوارها.. ملأتني السعادة قوة.. شعرت بجرأة كبيرة وانا أغوص في عينيها الواسعتين..

- هل لي أن أسألك يا عزيزتي؟

لم تجب.. أعادت نقودها الى الحقيبة.. مدت ذراعها ناحيتي.. قبضت على يدي.. اصطحبتني الى ركن بعيد في أطراف الحديقة..

مشينا على نتوءات السحاب.. وجلسنا على حافة القمر..

لم أعـد اتذكـر اعـاقـتي المصطنعـة.. لـم أدر كم مـضى من الوقت..؟

أفـقت على جـسدي مكوما على مـقـعد خـشـبي بين الممـرات الخضراء..

كانت جيوب سترتي مقلوبة.. كانت خاوية!

غُصّة..



غُصّة..

نهضت عن كرسي المكتب، بعدما انكفأت ساعات طوالاً في غرفتي، أعيد ترتيب كتبي وأوراقي.. اتفحص قصاصاتي المتناثرة هنا وهناك، بعد الاجازة الطويلة المتكاسلة التي تسللت الى حياتي عقب ولادة روايتي الاخيرة «غُصّة»، بشخوص ما زالت تتصارع في رأسي صباح مساء.. تشاركني يقظتي وحركتي.. تسلبني اسرتي وأصدقائي، وحتى قراءاتي.. فبت اعيش معهم حياة صامتة من نوع اخر..

اشعر اليوم برغبة قوية للفرار من خيوط تلك الرواية وابطالها، دون ترتيب مسبق.. اتحفز للعودة لحياتي الخاصة التي تشوقت لها.. او للانفلات لدائرة اوسع، باتت تملأ عقلي وتحاصر خيالي، عن رأي الاصدقاء والمقربين في الرواية.. وصرت شغوفا لنقدها وتشريحها من اهل الاختصاص؟

يتهيأ ذهني لاستقبال ذلك كله.. يتلهف لكلمة واحدة عنها، لارقب خطواتي المقبلة، متحفزا لشحذ أدواتي.. متلمسا مساحة اخرى جديدة للتأمل والابداع؟

منّيت نفسي بوقت اقضيه في التسامر مع الاسرة.. اغلقت

غرفتي على اوراقها.. قادتني قدماي لغرفة الصالون التي يتصدر اهم اركانها جهاز التلفاز الكبير، تقابله مقاعد متهالكة تجلس عليها زوجتي مع حماتي التي جاءت لزيارتنا هذا المساء.

القيت عليهما التحية وجلست مقابل التلفاز على مقعد بينهما..

زوجتي منشغلة في الحديث عن المذيعة السافرة التي تنتعل حذاء رخيص الثمن، له كعب مرتفع، رأت مثله في السوق منذ يومين.. صبت جام غضبها على ملابس ترتديها، تبرز صدرها وذراعيها، وعلى ذاك المخرج او المصور الذي يسلط الكاميرا على الاماكن العارية من جسدها و...

قاطعتها امها بهجوم أشد ضراوة على ضيفة البرنامج: لا أدري كيف تسمح هذه العجوز المتصابية ان تلون شفتيها بهذا الاحمر الصارخ؟ كيف تضع على وجهها تلك المساحيق الشيطانية امام ملايين المشاهدين؟..

أطلّت من حديثهما نبرة حادة، وصوت مرتفع يحول دون سماع البرنامج.

كانت عيناي شاخصتين صوب الشاشة لاستلهام الصور المتنقلة بين المذيعة وضيفتها.. أسلمت حواسي دون ارادة مني، لتبرم الزوجة وسخطها على المذيعة من اليمين، وشتائم الحماة للضيفة والبرنامج من اليسار.

لم تجد ذاكرتي بدا من العودة لأحداث روايتي «غُصّة».. ولابطالها القابعين فيها، ربما لذاك الشبه بين زوجتي واحدى

شخصيات الرواية التي تخيلت ملامحها.. وهيأت لها في الفصل الاخير خيطا رفيعا يمكنها لو فكرت في الامساك به، لتخلصت من الفضيحة قبل.... أفقت على زوجتي تسألنا عن المشروب الذي نفضل احتساءه؟

- القهوة السادة انسب مشروب لاحتسائه امام تلك البرامج التافهة - قالت حماتي وهي تشير للشاشة.. انظري للشعر الابيض في رأس تلك العجوز الشمطاء.. لم تستطع المساحيق ان تخفيه.. كان الاجدر ان ترتدي باروكة بنية اللون عوضا عن صبغة سوداء لا تناسبها!

- حتى الخطوط الغائرة في وجهها - قالت زوجتي وهي تتجه للمطبخ - لم يفلح الماكياج في اخفائها..

نساء اخر زمن - تمتمت حماتي - وهي تلملم جسدها المترهل.. متجهة صوب الحمام.

عاد الهدوء يلف الصالون، وعدت اهفو لسماع شيء من البرنامج..

امتلأت الشاشة بوجه المذيعة البشوش وهي تقول: وفي النهاية لم يتبق الا ان نشكر ضيفتنا دكتورة الادب الحديث على هذا الاسهاب في التحليل والنقد لرواية «غُصّة».. والى ان نلتقي مع رواية جديدة، لكم مني احلى الامنيات..



الارملة والحبل..

الارملة والحبل..

لا أدري بعد هذه السنوات الطوال.. كيف نصبت الوحدة خيمتها فوق حياتي؟.. كيف دقت اوتادها حولي، وأسرتني بين خيوطها؟.. كنت أخشاها وامقتها.. حاولت التخلص من نسيجها الكئيب، لكني لم افلح. وشيئا فشيئا الفتها.. انصهرت معها.. صارت عالمي المحتوم، ودنياي المترامية، بضجيجها الخافت، وأصواتها المكتومة.. هرولت بين أيامها وطرقاتها.. ازاحم مخلوقاتها.. ابتسم.. أركل.. أشتم.. وأسمع مسبتي!

لكني اليوم اشعر برغبة جامحة في التمرد على كل شيء، بعدما تراءى لي حبل يتدلى من أعلى الخيبة.. يلامس طرفه رأسي.. فكرت في اتخاذه برجا لاراقب ما حولي ومن حولي، بعدما شعرت انه الملاذ والامل في الخلاص منها.. اتلفت حولي خشية ان يراني أحد، يتهمني ببجاحة المرأة اللعوب، وهي تختلي بحبل في وضح الليالي وسواد النهار، بعدما رحل رفيق عمري، وانهار حائطي، تلاشى.. لم يعد له أثر. حتى ظله لملمه، وللم معه الذكريات، فلم يتبق منها الا اشياء باهتة، لا تكفي لخطوة حولها.. لكنه نسي الى جواري زمنا طويلا صامتا يسكنني

وأسكنه، يتلبسني ويملأ حياتي..

أمسك بالحبل.. أطويه على يدي وأشده.. أنجح في الصعود قليلا.. يتسع الافق أمامي.. انظر فلا أجد غير سكون يهب.. يحركني كورقة شجر يابسة.. يبعثرني.. يلقيني كيفما شاء!

أشد الحبل أكثر.. ينسحب جسدي الى أعلى.. تقع عيناي قريبا من الاوتاد.. انهم هناك.. مزيج من السحن المتحفزة.. يطل من عيونهم شبق، ويلوح من أفواههم مزيج لتهكم وسخرية ونهم غريب.. لا أدري لماذا يتحرشون.. فلم يبق الا اطلال لهاتيك العينين الغائرتين، وثدي فارغة، كبالونة ممزقة على حطام نخرة لعظام رميمة، وخطوط غائرة تتقاطع في وجهي بعبثية.

ينتابني خوف عظيم.. انهم يتأهبون لترتيب موتي، وسرقة وحدتي.. أصرخ في وجوههم.. أنشب اظافري في اعناقهم.. أدميها..

لا فائدة!!

أتردد بين الصعود والهبوط. لا بد ان ابتعد وأعود اليها.. الى وحدتي.. لكن جسدي الهزيل يترنح، والحبل يداعبني. ويغريني الصعود فيه الى رؤيتهم على حقيقتهم، وكشف المياه الراكدة التي يتحركون في عفونتها، بأقدامهم العارية..

أجذب الحبل بشدة.. أطويه على يدي مرتين.. أصعد أكثر وأكثر.. أكاد ألامس سقف الخيبة.. اهفو لاختراقها والتحليق في الفضاء.. اعجز.. أطلق عينيَّ لابعد مدى.. انهم هناك ينظرون

ناحيتي بضجر.. يتضاحكون، ويشيحون وجوههم عني..

اكتشف بشاعة أنني ارملة منذ ميلاد اليأس. لا تصلح لان تكون لافتة تتأرجح على قارعة الحياة..

لا استطيع التشبث أكثر.. فالحبل يؤلمني.. يحفر أخاديده حول كفي المخنوقة.. تضعف مقاومتي.. يتلاشى احتمالي.. وشيئا فشيئا ينسل الحبل.. يفلت من يدي.. أشعر بارتطام قوي. وأسمع خطوات تدنو..

بعضهم يضع جسدي على لوح خشبي مزركش بأغصان خضراء.. يرفعونه على أعناقهم.. ويسيرون نحو الاتجاه الاخير.. وعيونهم مثبتة على بعضهم الاخر، وهم يتحلقون حول الاوتاد.. يقتسمون اشيائي.. مذياع قديم، ووسادة بالية، وكرسي خشبي كنت اصلي عليه!



أرق..



أرق..

يتسلل البرد الى بدني، يمتد الى اطرافي رغم الغطاء السميك الذي أرقد وزوجي تحته.. التصق فيه طمعا في دفء احتاجه.. يفر النوم من رأسي.. أبحث دون فائدة عن سبب لشبح الارق الذي يطاردني، بعدما استسلم زوجي للنوم لحظة القى رأسه على الوسادة..

توغل الليل في سواده، وانتشر السكون في ثنايا الغرفة وأركانها.. لا أدري ماذا أفعل؟.. أطوقه بذراعي عليّ اوقظه أو اوقظ بعضا منه.. لا فائدة!

لم افلح في القبض على عيني اللتين تدوران في جفنيّ.. تحملقان بلا غاية في ظلام حالك..

اتوهم ان كلمات مقدسات يمكن ان تسحبني بعيدا.. تهدئني.. تعيد الى نفسي توازنها.. أقرأها في جوفي..

يشتد البرد.. يسيطر القلق على رأسي!

اتمنى لو ابتلعت حبات تساعدني على النوم.. لكني لا أملكها في هذا الوقت المتأخر من الليل!

أتذكر فنجان القهوة الذي ربما سبب لي هذا التوتر والارهاق.. اصرار الجارة المنكوبة في زوجها الشاب دفعني لاحتساء سواده

وتجرع مرارته، مشاركة اياها مشاعر الألم التي استبدت بها..

اتقلب يمينا ويسارا.. افتح عيني على اتساعهما، أعود لاغماضهما، اكرر ذلك مرات.. لم يبق للنوم أثر في رأسي..

يبدأ زوجي رحلة الشخير.. تنتابني رغبة في كتم انفاسه المختلطة بهذا الشخير.. تراودني فكرة ايقاظه من جديد.. أتأرجح بين فكرتي ورغبتي!!

يعاودني الحزن على جارتي.. على انوثتها التي باتت تتلظى بهجير الحرمان وقسوة الفراق.

تأتيني في الظلام فكرة الاستماع الى المذياع.. أتحمس لها.. أتحسس أزراره.. ينطلق صوت المذيعة وهي تقدم بصوتها العذب رواية انجذب اليها..

يختلط الشخير بالرواية التي اندمجت في احداثها.. تعاطفت مع شخوصها.. البرد يمنعني من انتشال المذياع الى غرفة اخرى.. يمنعني رفع الغطاء عن بدني..

تمتد اصابعي للمؤشر أرفع صوته قليلا.. أزرع ساقي بين قدميه.. التصق به اكثر ومسامعي تراوح بين شخيره والرواية..

مع ظهور الخيوط الاولى للفجر.. اقتنصت من بين حرشفات الشخير صوت المذيعة وهي تسرد نهاية مؤلمة للبطلة.. أشبه بالانتحار..

أصابني احباط وتسلقتني غصة.. دفعتني منتفضة أبحث عن ثياب أرتديها!!

فجأة.. انقطع الشخير..

أدار ظهره.. قال بصوت جهوري: كانت نهاية مأساوية!!

.. واصل شخيره!!